مذكرات حمدي قنديل



عِشْتُ مَرَّتَيْن



نُشرت هذه المذكرات في موقع جريدة الشروق المصرية مُسلسلة على حلقات عام 2014م وقمنا في مدونة مذكرات كتاب قرأته بنسخ هذه الحلقات وإعدادها في كتاب اكتروني ونعتذر عن أي خطأ وقع في ترتيب الحلقات.

أخى الأصغر هو عاصم قنديل، المحامى الآن، وهو آخر العنقود كما يقال، أما ماجد، اللواء المتقاعد الذى قضى عمره فى سلاح المدفعية، فقد ولد بعد ولادتى بعامين، وبعده بعامين أيضا ولدت ميرفت، وهى ربة أسرة متزوجة من لواء الأسلحة والذخيرة المتقاعد صالح صالح، وبعد عامين آخرين جاءت شقيقتى مآثر، التى عينت معيدة بقسم اللغة الإسبانية فى كلية الألسن، ثم حصلت على منحة لدراسة الدكتوراه فى إسبانيا، وهناك بدأت حياتها كمترجمة فورية حتى تقاعدت قبل سنوات، أما ميرفت التى تصغرنى بأربعة أعوام فهى تعاملنى كأمى.

أنجبت ميرفت ومآثر أولادا وبنات، أما أنا وماجد وعاصم فلم ينجب ثلاثتنا، والحمد لله أننا راضون بما قسم الله لنا.

عشنا جميعا أيام صبانا فى طنطا التى انتقل إليها والدى مدرسا للغة العربية فى مدرسة طنطا الثانوية للبنات، وكنا نسكن فى بيت من ثلاثة طوابق فى 16 شارع الفاتح، كان بيتنا مثل كثير من البيوت المصرية يعرف ربنا، ويعمر المساجد ويعمِّر فى الأرض ويعامل الناس بالحسنى.

كان أبى يسمح لى، بل يطلب منى أحيانا، قراءة جريدة المصرى، وكانت هى الجريدة الوحيدة التى يشتريها كل يوم، قرأت جريدة الاشتراكية فى بيت صديق كان والده يشتريها بانتظام، فأصبحت أبحث عنها أنا الآخر بين الحين والحين، وأظنها أثرت كثيرا فى توجيه ميولى، بل واستفزتنى إلى أبعد حد عندما قرأت فيها مقال أحمد حسين الشهير رعاياك يا مولاى.

كان المقال ممتدا على صفحتين تصدرته صورة لطفل حافى القدمين مهلهل الملابس وصور أخرى لنساء ورجال تنطق أحوالهم بالبؤس فى أزقة القاهرة وأعماق الريف، وذُيِّلَ المقال بتوقيع المخلص: أحمد حسين.

كانت دراستنا مستقرة، ولم يرسب أحدنا فى عام من الأعوام، ولا أذكر أننى رسبت فى مادة سوى مرة واحدة عندما كنت فى مدرسة طنطا الابتدائية للبنين، وعندما جاءت الشهادة بدائرة حمراء فى اللغة الإنجليزية

خلع والدى حزامه وضربنى به مرة واحدة كانت هى الأولى والأخيرة، التى ضربنى فيها، أنا أو واحد من إخوتى فى حياته.

أذكر من زملائى فى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة: جمال بدوى وعمرو موسى.. جمال أصبح فيما بعد صحفيا لامعا وكاتبا كبيرا، وكنت أعتبره واحدا من أفضل من تحدثوا على شاشة التليفزيون وهو يروى كحكاء بارع قصصا مثيرة من التاريخ.

أما الطالب الثانى الذى امتدت علاقتى به هو الآخر، فكان عمرو موسى، وزير الخارجية وأمين الجامعة العربية ثم مرشح الرئاسة، فكان كل من يعرفه يتوسم فيه النبوغ، وكان متفوقا طوال دراسته، وغالبا ما كنا نتنافس معا على المركزين الأول والثانى، وظل طويلا يتحدث عن هذه المعركة إلى الآخرين أينما تواجدنا معا، ويضيف ضاحكا أنه كان بالطبع الأول على الدوام، وكنت أقول إننى سلمت بأنه كان الأول منذ عين وزيرا.

وكان لى فى ذلك الوقت بطل أسطورى واحد هو لطفى فطيم. كان فى العشرينيات من عمره، وكان جارا لنا، لفت نظرى بزيارات البوليس السياسى المتكررة له، واختفائه لأيام أو شهور بعد أن يغادر منزله فى بوكس الشرطة.

كان لطفى لغزا بالنسبة لى وعدد من أقرانى، وازداد اللغز غموضا حين قال أحدنا إنه شيوعى، ولم يكن هناك بد من أن أتربص به ذات مرة، وأسأله إذا ما كان شيوعيا حقا، وما هذه الشيوعية؟ وقد أجابنى يومها بإيجاز، لكنه وعدنى أن نلتقى مرة كل أسبوع فى الحديقة المواجهة لمدرسة طنطا الثانوية القديمة فى شارع البحر ليحدثنى باستفاضة.

عندما التقينا فى الموعد المحدد نبهنى أن أكتم سر لقائنا ومكانه فازداد الأمر بالنسبة لى إثارة، وأعطانى يومها محاضرة موجزة تذكرت منها عبارتين براقتين، «العدالة الاجتماعية» و«المساواة بين البشر»، لما قلت

لأبى ما سمعت قال إن ذلك كله فى الإسلام، وطلب منى أن أستعد فى عصر اليوم التالى ليصطحبنى إلى جمعية «الشبان المسلمين» سألته: الشبان أم الإخوان؟ أذكر ما قال: «لا، الإخوان شداد شوية».. ربما كان يعنى متشددين، أو يعنى أنهم ميالون إلى العنف، خاصة أن الأنباء كانت تواترت عندئذ عن مقتل النقراشى باشا، رئيس الوزراء، واللواء سليم زكى، حكمدار العاصمة، على أيديهم.

دعانى لطفى فطيم إلى بيته حيث أطلعنى على بعض المنشورات المكتوبة بخط يده، وكان أحدها قاموسا فى ألفاظ السباب، لعن فيه خاش الملك والحكومة والإنجليز جميعا، يومها طلب منى أن أعاونه فى نسخ المنشورات بخطى لأن الشرطة أصبحت تعرف خطه جيدا، وعندما تهربت طلب منى أن أعاونه فى توزيعها على الأقل، وبدت لى المهمة أكثر إثارة.

قال إنه يعرف أننى أصلى الجمعة فى مسجد قريب من البيت، ولكنه يطلب منى أن أصليها فى الأسبوع التالى فى مسجد السيد البدوى الحاشد عادة بالمصلين؛ لكى نوزع فيه منشورات معادية للملك.

ذهبت إلى منزله صباح الجمعة، حيث شحنت حزمة من المنشورات داخل سترتى، وفعل هو الآخر الشىء نفسه، وذهبنا إلى المسجد، توجه هو إلى الطابق الأرضى وطلب منى التوجه إلى الطابق العلوى، وقال: «عندما تنتهى الصلاة ويبدأ المصلون فى التسليم أقذف المنشورات من أعلى إلى صحن المسجد بعد أن يلتفت الناس بالسلام إلى جانبهم الأيمن وقبل أن يلتفتوا للتسليم إلى يسارهم، وهرول إلى أسفل تجاه الباب دون أن تجرى»، وتمت المهمة بنجاح، وكنت أشعر بسعادة بالغة وأنا أرى المنشورات تتطاير مع الريح الخفيفة فى صحن المسجد كما لو كنا فى كرنفال.

كانت تعليمات لطفى أن يتحاشى كل منا أن يلتقى الآخر لأسبوع كامل، ولكننى شغلت عنه سنوات طوالا كان قد طلق خلالها النشاط السياسى وسافر إلى الخارج، ربما إلى هولندا، وعندما عاد نجح فى ميدان نشر

الكتب وتوزيعها، وأصبح أستاذا لعلم النفس فى الجامعة، وقد علمت مؤخرا أنه عاش فى السعودية نحو عشر سنوات توفى بعدها فى عام 1998.

أما المغامرة الأخرى التى ما أزال أختزن تفاصيلها فكانت أيضا أيام دراستى الثانوية، حيث علمت أن هناك صحيفة محلية تصدر فى طنطا باسم جريدة الإخلاص، وكان صاحبها ورئيس تحريرها هو الأستاذ محمد عبدالسلام شتا.

ذهبت إلى الأستاذ عبدالسلام فى الجريدة، وكانت فى حارة خلف قسم أول طنطا، يومها كان الرجل رابضا خلف مكتبه، ورحب بى ببعض المبالغة، وطلب منى أن أجمع أخبارا من هنا وهناك وآتى بها إليه بعد أسبوع، لكنه حذرنى من أنه سيكون من الصعب القيام بهذا العمل إلَّا لو أعطانى بطاقة صحفية، وقال إن لديه نوعيْن من البطاقات، أحدهما «عادى» والآخر «لوكس.«

اخترت اللوكس على الرغم من أن ثمنها كان أربعة جنيهات، هى كل ما كان فى حصالتى، وحصلت على ما يثبت أننى أصبحت (مراسلا صحفيا)، أذكر أننى ذهبت إلى الإسكندرية فى ذلك الصيف، وعندما كنت أدخل إلى بلاج سيدى بشر نمرة 2 الخاص، كنت أبرز الكارنيه اللوكس وأقول بصوت عالٍ: صحافة، فيسمح لى بالدخول دون أن أدفع الرسوم، وكنت أحس بزهو عظيم.

فى ذلك الوقت كان هناك جدل محتدم فى البرلمان حول ترميم اليخت الملكى (المحروسة) فى إيطاليا، وكانت الحكومة خصصت لهذا الغرض مليون جنيه، وهو الأمر الذى استفز نواب المعارضة، وخاصة المحامى الكبير مصطفى مرعى بك، والذى قدم استجوابا فى هذا الشأن وألقى خطابا ناريا قال فيه كلمته الشهيرة: «اليخت ملك فاروق وليس ملكا للدولة فلماذا تتكلف الدولة بتصليحه؟»، وقد تأثرت كثيرا بالخطاب فكتبت مقالا

على خطى مرعى نفسها، وتسللت به فى المساء إلى المطبعة وقمت بدسه فى الصحيفة بعد أن خدعت (المطبعجى) فى وردية الليل.

حلت الكارثة بالإخلاص، وأغلقت الصحيفة، وألقى القبض على محمد عبدالسلام شتا فى قسم أول، ولكن سرعان ما دبر أمره، فأفرج عنه خلال ساعات.

عندما اقتربت امتحانات التوجيهية (الثانوية العامة) تبدلت الأحوال، مرض والدى مرضا شديدا اضطر معه للعلاج فى مستشفى الجمعية الخيرية فى القاهرة، أما أمى فقد أرهقها السفر بين طنطا والقاهرة، واضطربت أحوال البيت، وكنت أنا وإخوتى فى غم دائم، فأنهيت الامتحان بصعوبة، ولم أحصل سوى على 60% بالكاد.

كانت صدمة قاسية للعائلة التى كانت تتوقع لابنها المتفوق دائما أن يدخل الطب، ويلبس البالطو الأبيض وينادونه: «يا دكتور.«

1952–1956

قادنى مجموعي فى الثانوية العامة إلى واحد من اختيارين؛ إما كلية العلوم وإما معهد الكيمياء الصناعية، وكان أبى يتكهن بأن للتعدين والبترول مستقبلا كبيرا فى مصر؛ ولذلك رجح كفة كلية العلوم، بل وقال: «اعمل حسابك من الآن، عندما تبدأون فى التخصص، فسوف تدرس فى قسم الجيولوجيا»، وكانت كلية العلوم المتاحة هى علوم الإسكندرية.

كانت نقلة ثقيلة فى حياتى من البيت الدافئ إلى المجهول، سافرت مع والدى إلى الإسكندرية، وكان لنا هناك أقارب يعيشون فى حى فيكتوريا، طلب والدى منهم أن يساعدونا على إيجاد مسكن لى يفضل أن يكون «مع ناس طيبين»، واهتدينا إلى عائلة يونانية، كانا زوجين فى الستينيات من عمرهما، وكانت الشقة نظيفة، فاتفقنا مع الرجل على السكن والإفطار مقابل 12 جنيها فى الشهر، واشتركت فى مطعم مجاور للكلية لتناول الغداء فيه مقابل أربعة جنيهات أخرى.

أذكر أننى اشتريت كتبا كثيرة، وكان معظمها بالإنجليزية، وكنت أستغرق فى الدراسة إلى حد أنه لم يكن يغرينى فى المدينة الكبيرة شئ سواها، ولم يكن لى بعدُ أصحاب ولا رفاق أزورهم ويزوروننى، وداهمتنى نوبات من الصداع لم أكن أعرفها من قبل، ولم يمضِ شهران حتى استولى علىّ شعور جارف أن أعيد امتحان التوجيهية وأحصل على مجموع أستعيد به كرامتى وسط أقرانى وأعيد به البهجة إلى الأسرة، وأظن أن هذا كان دافعا مهما لعودتى إلى طنطا، وأعتقد أن أبى وأمى لم يمانعا فى ذلك بل ربما كانا يحبذانه.

بدأت أجمع كتب التوجيهية مرة أخرى وأعد نفسى للامتحان، إلّا أن نوبات الصداع كانت تتكرر بسرعة أكبر وحدة بالغة، ولم أكن أستطيع القراءة أكثر من دقائق معدودة، وظن الجميع فى بداية الأمر أننى أحتاج إلى نظارة طبية ولكن نظرى كان سليما، وهكذا صحبنى أبى إلى القاهرة حيث طفنا بأطباء فى كل التخصصات عدا أمراض النساء والأطفال.

وهكذا قفلنا عائدين إلى طنطا ونحن فى حيرة، والصداع لا يزال على حاله، وكان التفسير المنطقى الذى توصلت إليه صديقات أمى بعد أن أمضين معها يوما كاملا يبحثن فيه الأمر هو أن «الولد معمول له عمل.»

وهكذا جيء برجل معمم إلى البيت، وأعدت له غرفة مظلمة وحده، خرج منها بعد ساعة ليعلن على الجميع أن الولد معمول له عمل فعلا، وأن هذا العمل مدفون فى الحقول المجاورة لمستشفى طنطا الأميرى، وأننا يجب أن نخرج فى اليوم التالى فى الفجر لنبحث عنه ونبطل مفعوله، وعندما جاء الرجل بالحنطور مع أول خيط من خيوط النهار نزلت إليه مع أبى الذى كان ممتعضا امتعاضا شديدا لتورطه فى كل هذه الرواية، لكنه حاول إخفاء شعوره، وتوقف الحنطور بنا بجانب سور المستشفى، ونزل الرجل معصوب العينين ونحن وراءه، وعندما أمسك بالسور بيده، خطا ثلاث خطوات عدَّها بحرص، ثم توقف وخلع منديله من فوق عينيه ونادى على واحد من الفلاحين الذين كانوا يعملون فى الحقل بالقرب منا: «افحت هنا

يا جدع»، وإذا بخرقة ملفوفة فى قطعة من القماش القذر تظهر من باطن الأرض فيتلقفها الرجل بيده متلهفا كما لو كان قد وجد كنزا.

عاد بنا الحنطور إلى البيت، حيث طلب الرجل طشت غسيل مليئا بالماء، ونثر فيه كثيرا من الملح وهو يقرأ القرآن ويفك اللفافة بيديه، حتى ظهرت بداخلها ورقة ملفوفة بعناية فقال الرجل إنها العمل، وعندما هَمَّ بإلقاء الورقة فى الماء أطبق والدى على يده، وصمم على أن يقرأ ما فى الورقة، حاول الرجل أن يقنع والدى بأن من يلقى نظرة واحدة على العمل تعمى عيناه، ولكن والدى لم يتراجع، وقد ازداد إعجابى لحظتها به، ولم أكن أتخيل أنه يخفى وراء وجهه السمح كل هذه القوة والحزم، وبدأ والدى فى قراءة الورقة، ولم يجد مكتوبا فيها سوى آيات من القرآن فتساءل: كيف يجلب كتاب الله الضرر؟ وفوق هذا وذاك لم يجد ذكرا لاسمى فى الورقة، فطرد الرجل شر طردة، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أصدق الدجالين أو أتعامل مع العرافين.

وعندما اشتد بى الصداع، وكانت حدته قد وصلت إلى درجة أننى لم أكن أستطيع النوم إلّا بصعوبة، ولم تنفع المهدئات أو المنومات، فنصح عمى أبى أن أدخن سيجارة عندما أدخل سريرى، فربما دارت بى رأسى ونمت، وهكذا كانت أول سيجارة فى حياتى هى تلك التى أوقدها لى عمى بينما كان أبى واقفا إلى جواره، ولم أنم ليلتها، ولم أقلع عن التدخين منذ ذلك الحين.

فاتنى الدور الأول من امتحانات التوجيهية ولم يكن قد تبقى على الدور الثانى سوى شهرين اثنين، لكنهما كانا كافييْن مع دأبى وإصراري، ودخلت الامتحان، وأهلني مجموعي بـ 74.5% لدخول كلية طب قصر العيني، فعم الفرح الأهل والمعارف، وبدأت فى الاستعداد للرحيل إلى القاهرة.

زملائي الكبار

أذكر من زملائي في مدرسة طنطا الثانوية الجديدة: جمال بدوى وعمرو موسى.. جمال أصبح فيما بعد صحفيا لامعا وكاتبا كبيرا وكنت أعتبره

واحدا من أفضل من تحدثوا على شاشة التليفزيون وهو يروى كحكاء بارع قصصا مثيرة من التاريخ.

أضعت فى اكتشاف القاهرة كل ما كان يسمح به المصروف الذى كان يعطيه لى والدى، وكان عشرة جنيهات فى الشهر، وهو مبلغ معتبر يمكن أن يكفى كل صنوف التسلية البريئة، والواقع أننى لم أجرب غيرها من صنوف التسلية سوى مرة واحدة، كان ذلك عندما دعانى أحد الزملاء فى الكلية إلى سهرة فى القلعة، وصارحنى أننا سندخن ليلتها «أجدع حشيش فى مصر»، ولم أمانع، لكننى لم أشعر براحة تجاه المكان الذى قصدناه وكان قبوا فى بيت متهالك، ولا بالجالسين حولى، كما أننى استنكفت أن أدخن «الجوزة»، ويبدو أن أحدهم لاحظ ذلك فنادى بصوت عالٍ ساخرا: «يا اخواننا لفوا سجاير للأفندى.«

عاندت لأثبت للجمع أن «الأفندى» لا يهزه الحشيش فدخنت بدلا من السيجارة ثلاثا، ولكننى عندما غادرتهم مبكرا ضعت فى مسالك القلعة وحواريها وأنا أبحث عن محطة الأوتوبيس، ولم يكن هذا ما أزعجنى، وانما ما أزعجنى حقا هو الشعور بأن هناك أحدا يطاردنى، تملكنى جبن شديد لم أعرف كنهه، وكان هذا كافيا كى لا أعاود الكرَّة مرة أخرى.

وفى أحد الأيام التقيت إبراهيم مصطفى رائدنا السابق فى جمعية الشبان المسلمين، فأخذنى معه إلى بيت المهندس مصطفى مؤمن فى شارع قصر العينى، وكان زعيم طلبة الإخوان المسلمين فى جامعة القاهرة فى الأربعينيات، وهناك حضرنا ندوة لمناقشة كتاب أحمد بهاء الدين الذى كان صدر حديثا «النقطة الرابعة تعنى الحرب» (النقطة الرابعة هو برنامج مساعدات أمريكية أطلقه ترومان عند توليه الرئاسة فى 1949)، واستكملنا مناقشة الكتاب بعدئذ فى ندوة أخرى، وقد ألهبت هذه المناقشات عدائى لأمريكا، ليترسخ لديَّ اعتقاد بأنها وراء معظم المصائب فى مصر، وأنها تحرك كثيرا من الخيوط من وراء الستار.

●تظاهرت دعمًا لمحمد نجيب بعد إقالته..وإزداد حنقى على الحكم بعد اعتقال إحسان عبدالقدوس

مع نجيب

استغرقت جولاتى هذه أشهرا قليلة لم أخرج منها بنتائج جلية حتى جاء مارس 1954 عندما حدثت الأزمة المعروفة بين محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة، وكنت من بين أولئك الذين يناصرون محمد نجيب لأنه ـ على ما فهمت ـ كان هو من ينادى بعودة الجيش إلى ثكناته، وتشكيل حكومة برلمانية، فى حين كان الآخرون يصرون على البقاء فى السلطة، وكان نجيب رمز الثورة لدى الكثيرين، وعندما صدر القرار بإقالته خرجت من الجامعة مظاهرات استمرت عدة أيام.

فى أحد هذه الأيام وصلنا إلى كوبرى قصر النيل فطاردتنا الشرطة واعتقلت الكثيرين، ولكننى استطعت النجاة مع البعض عندما سارعنا بالعَدْو تجاه فندق شبرد، واختبأنا فى جراج عمارة الشمس المجاورة له؛ حيث استتر بعضنا داخل السيارات والآخرون تحتها أو خلفها، وظللنا فى هذا المخبأ ساعات حتى تأكدنا أن الشرطة غادرت المكان عندما صاح ضابط فى الخارج: «حارجع لكم تانى يا ولاد الكلب.«

●حصلت على درجتين من مائة فى الكيميا العضوية.. فحبست نفسى شهرين بعدما حلقت شعرى «على الزيرو«

وزاد حنقى على الحكم بعد اعتقال إحسان عبدالقدوس، ولم أفهم كيف تعتقل الثورة ذلك الرجل الذى كشف الأسلحة الفاسدة، ولكننى كنت أحاول على الدوام الاهتمام بالدراسة، وغالبا ما كنت أفشل، وكان مصيرى المحتوم الرسوب فى كل المواد، وأذكر أننى حصلت فى إحداها على صفر، أما فى الكيمياء الحيوية، وكان كتابها يزيد على 300 صفحة باللغة الإنجليزية، فلم أستطع الإجابة سوى على فقرة واحدة من سؤال بين أسئلة الامتحان الخمسة، وكان السؤال على ما أذكر حول تركيب غاز الأوزون، ونلت مقابل هذه الإجابة درجتين اثنتين من مائة درجة.

لم تصدمنى النتيجة كثيرا، وقررت العودة إلى طنطا، وحلقت شعرى «على الزيرو» وحبست نفسى فى المنزل لم أغادره لمدة شهرين فاستطعت بذلك اجتياز امتحانات الدور الثانى، ونقلت إلى سنة أولى طب، أى إلى دراسة الطب الحقيقية فى قصر العينى.

فى خريف 1955 بدأت الانشغال بالمجلة التى كانت الكلية على وشك إصدارها، وبدأنا العمل باختيار الطلبة والأساتذة الذين سيكتبون المقالات أو يجمعون الأخبار والمعلومات، وأخذنا ننقب فى تاريخ الكلية ونبحث عن خريجيها البارزين الذين تولوا مناصب مهمة وما زالوا على قيد الحياة، وجمعنا قدرا كبيرا من الصور الفريدة.

احتفلت أخبار اليوم معنا عندما انتهت طباعة المجلة، وانضمت إلى الاحتفال زميلتنا سميحة النجدى التى تصدرت صورتها الغلاف، وقد توفيت فى ريعان شبابها بعد تخرجها بسنوات، وكانت آية فى الجمال والخلق، أما أنا فقد كدت أطير فرحا بنشر مقالى فى المجلة (بقلم حمدى قنديل) تحت عنوان «ذئاب ونعاج فى الجامعة»، وكان يدور حول العلاقة بين الطلبة والطالبات، الموضوع الذى شغل بالى كثيرا، وعندما اطلعت على المقال مؤخرا هالنى ما فيه من سطحية.

قبل فجيعة الامتحان، وكنا وقتها فى عام 1956، واجهتنا فجيعة أقسى، إذ جاءنا الدكتور ناصح أمين ينقل لنا النبأ الصادم أن إدارة الكلية قررت مصادرة المجلة؛ بدعوى أننا تطاولنا على الجامعة وأساتذتها، وكنا بالفعل قد انتقدنا الأساتذة ولكننا لم نتطاول عليهم، لهذا رجحنا أن يكون سبب المصادرة هو مقال محمد العزبى، وكان مقالا ملتهبا عن الكفاح الوطنى لطلبة الطب عبر الزمن، أو أن يكون أصحاب العيون والآذان المفتوحة قد علموا أننا من أنصار محمد نجيب.

فى براغ

بعدها بأيام نادانى صبرى أيوب إلى الملاعب ليحدثنى فى أمر قال إنه مهم: «أنا على صلة باتحاد الطلبة العالمى فى براغ IUS كما تعرف، وسيعقد الاتحاد مؤتمره السنوى هذا العام فى المدينة نفسها، وهم يواجهون أزمة مع السلطات المصرية التى ترفض مشاركة طلبة من مصر فى مؤتمر تعقده منظمة يسارية» على الرغم من أن عبدالناصر كان قد عقد صفقة الأسلحة التشيكية الشهيرة فى العام السابق، أى فى عام 1955، وعلى الرغم من وقوفه ضد سياسة الأحلاف العسكرية الغربية فقد كان حذرا من تسلل الخطر الشيوعى إلى مصر فى ذلك الحين، وهكذا رفضت سلطات الأمن مشاركة مصر فى المؤتمر.

اتصل بى صبرى ذات يوم وسألنى إذا ما كنت أستطيع المرور عليه فى المساء، وعندما ذهبت إليه كان لديه ضيف أجنبى هو رئيس اتحاد الطلبة العالمى (يورى بليكان)، وهو تشيكى أصبح فيما بعد رئيسا للتليفزيون، تكلم بليكان طويلا عن الاتحاد وعن المؤتمر وودعناه بعد أن وعدناه بالحضور، كذلك وعدناه بأن ننسق، كما طلب، مع ياسر عرفات الذى أبلغنا فيما بعد بأنه سيحضر المؤتمر هو الآخر.

لم يكن ياسر عرفات شخصية معروفة عندئذ، كان مجرد طالب مثلنا يدرس فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وإن كنا قد اجتمعنا به من قبل فى ندوة عقدت فى مقر اتحاد الطلبة الفلسطينيين باعتباره رئيسا للاتحاد.

بعد مقابلة بليكان، أعلن عبدالناصر عن تأميم قناة السويس، وتأزمت العلاقة مع الغرب، ومع ذلك ظل رفض الجامعة للمشاركة فى المؤتمر على ما هو، وهكذا بدأنا نتشاور حول تشكيل وفدنا، واتفقنا على أن نصطحب معنا زميلنا سليمان إدريس (الذى أصبح زعيما نقابيا فى شركة الحديد والصلب فيما بعد) واقترحت أن نضم طالبة إلينا أيضا، فرشح صبرى سناء فتح الله (الناقدة المسرحية الكبيرة فيما بعد)، وكانت تتدرب فى دار أخبار اليوم عندما كنا نطبع المجلة، وكثيرا ما كانت تعاوننا فى

إعدادها اتصلنا بسناء فوافقت على الفور، وهكذا بدأنا التحضير للسفر الذى اتفقنا مع ياسر عرفات أن يكون عن طريق أثينا.

بحرًا إلى اليونان

في إحدى جلسات المؤتمر، الصف الأول من اليسار: ياسر عرفات وصلاح خلف وزهير العلمي .. الصف الثاني من اليسار: سناء فتح الله وأنا وصبري أيوب وسليمان إدريس

حجزنا السفر بالبحر بالباخرة التركية (إسكندرون)، وقبل أن نستقل القطار جميعا من أثينا فى اليوم التالى اقترح ياسر عرفات أن نزور الأكروبول فذهبنا معا إلى حيث يقع هذا المعبد الشهير فوق هضبة عالية (اسمه باليونانية يعنى الهضبة العالية.(

من فوق الهضبة أخذ عرفات يحدق طويلا من خلال نظارة معظمة ثم ناداني، ولما اقتربت طلب منى أن أثبت عينى فى النظارة وسألنى: «هل ترى فلسطين؟».. فلسطين؟! فلسطين تبعد عن هنا مئات الكيلومترات يا ياسر.. قال عرفات: «ولكننى أراها بوضوح، بل إننى أرى قبة الصخرة تلمع»، عندما سددت النظارة إلى الوجهة التى حددها لم أتبين شيئا سوى مياه البحر على مدى البصر، وظللت سنوات بعد أن بدأ اسم عرفات يلمع فى أواخر الستينيات حائرا بين ظنونى، فإما أنه خيل إليه بالفعل أنه رأى فلسطين لشدة تعلقه بها، وإما أنه قد بدأ يلعب دور السياسيين الذين يبيعون الأوهام للناس ويلعبون بعواطفهم.

كانت رحلة ممتعة بالقطار استقبلنا بعدها فى محطة براغ استقبال الفاتحين، وقدمت لنا باقات الزهور، وعندما تقدمنا صبرى وسط جمع من البنات والصبية الذين كانوا يلوحون بأعلام مصرية وفلسطينية صغيرة بدا كما لو كان رئيس دولة، خاصة أنه كان الوحيد بين القادمين والمستقبلين الذى يلبس بدلة بصديرى تتدلى منه سلسلة ساعة، ولما افتتح المؤتمر وجاء دور صبرى ليلقى كلمة مصر تكرر المشهد ودوت القاعة بالتصفيق والهتاف لناصر ووقف الأعضاء جميعا تقديرا واحتراما، أما أنا وسناء وسليمان فقد

سالت من مآقينا الدموع، ذقت منذ ذلك الحين معنى الاعتزاز ببلدى وبنفسى كمصرى.

زملاؤنا السوفييت

لم نكن على أى حال فى حاجة لبذل جهد لاستخراج تأشيرة أو استصدار تذاكر سفر فقد قام زملاؤنا السوفييت بترتيب كل شىء على نحو دقيق، وسافر وفدنا بالقطار إلى موسكو حيث استقبلنا استقبالا أكثر تواضعا من ذلك الذى وقع فى براغ وإن لم يقل دفئا وحماسا، كانوا يسموننا وفد ناصر، وربما لهذا استضافونا فى فندق لا يليق إلا بالوزراء ومن على شاكلتهم، والحق أن كل فنادق موسكو الكبرى كانت عندئذ أشبه بالقصور.

فى موسكو كان أول بند فى البرنامج بعد الذهاب إلى مسرح البولشوى (أى المسرح الكبير باللغة الروسية) هو زيارة إذاعة موسكو (أظن أن اسمها عندئذ كان: صوت روسيا)، هناك استضافونا فى القسم العربى، وأجروا حديثا مع كل منا حول تأميم القناة وحول مؤتمر براغ وكذلك حول الثورة المصرية.

كانت هذه أول مرة يخرج فيها صوتى على موجات الأثير، ولم أكن أعلم عندئذ أننى سأعمل فى الأستوديوهات بقية عمرى، ولا كنت أعلم أن الشاب الذى جلس معى نحتسى الشاى إلى أن ينتهى صبرى وسناء من التسجيل سيصبح بعد سنوات وزيرا لخارجية روسيا ثم رئيسا لحكومتها فى عهد يلتسين، كان الشاب هو يفجينى بريماكوف»، الذى كان يعمل بالقسم العربى فى الإذاعة عندئذ، فى المساء جاءنا المترجم إلى الفندق، وهناك أبلغنا أن الإذاعة تعرض علينا نحن الثلاثة العمل بها، وافق صبرى على الفور، ورفضت سناء دون تردد، أما أنا فقد استمهلته حتى الغد لأتخذ قرارى.

طمأننا صبرى أنه لن يباشر العمل إلَّا بعد سفرنا، أما أنا فظللت غارقا فى الصمت، كل ما كان يشغل بالى هى الزيارة التى قررت أن أقوم بها فى الصباح للسفارة المصرية.

ذهبت دون موعد، وطلبت مقابلة سفيرنا الشهير محمد عوض القونى الذى استقبلنى بعد انتظار قصير، فرويت له قصة وفدنا وأخبرته بالعرض الذى تلقيناه، وبأننى راغب فى العمل فى الإذاعة عدة شهور ولكننى أريد أولا استئذان السلطات المصرية، كان هذا هو القرار الذى توصلت إليه خاصة بعد أن زاد إعجابى بعبدالناصر بعد تأميمه للقناة، وأيقنت أنه لا يمكننى العمل بدون إذن والاصطدام مع النظام، أثنى القونى على قرارى، وقال إنه سيبلغ القاهرة بالأمر وسيفيدنى بعد ذلك بالرد.

●تلقيت عرضًا وأنا فى موسكو للعمل فى «الإذاعة».. فطلبت الإذن من القاهرة فجاء الرد: خالك بيقولك إرجع حالا

كان قد مضى على إقامتنا فى موسكو ثلاثة أسابيع، والآن علىَّ أن أرحل، كان السفير القونى قد تلقى ردا على رسالته من القاهرة، وكان الرد موجزا للغاية: «خالك بيقولك: عد فورا إلى القاهرة»، كان خالى المقدم صادق حلاوة يشغل المنصب المناسب لطلبى بالتحديد، كان رئيس قسم مكافحة الشيوعية فى وزارة الداخلية!

●حملت المدفع الرشاش وأنا عائد للبيت وكنت أشعر بالرجولة الكاملة

العدوان

فى القاهرة كانت تهديدات الغرب قد تصاعدت، وبدأ التلويح بالعدوان على مصر، وهكذا التحقت بالحرس الوطنى ضمن الكتيبة التى بدأ تشكيلها فى قصر العينى، وقد تقاطر الأساتذة والطلبة للانضمام إلى الكتيبة، وبدأ التدريب بشكل يومى لنحو ساعتين، ووزعت علينا فيما بعد مدافع رشاشة، وأذكر أننى فى أول يوم حملت فيه مدفعى وأنا عائد إلى البيت شعرت بالرجولة الكاملة وبالمسئولية الكاملة أيضا، وكان كثيرون غيرى يحملون مدافعهم وبنادقهم فى الشوارع، لم تكن الثورة تخشى شعبها.

وقبل العدوان الثلاثى بأيام تم توزيع معظم فرق الحرس الوطنى فى البلاد على مواقعها، وكان الموقع الذى خصص لفصيلتى فى القاهرة مجاورا لحى المرج، وكنا نقضى الليل فى المزارع مختبئين فى قنوات الرى أو

تحت الشجر نعين أنفسنا على البرد بالشاى الذى كان يجىء به أهل الكفر المجاور فى براد، ما إن يفرغ حتى يأتونا بغيره.

كانت مهمتنا أن نقاوم أى إنزال محتمل للغزاة بالمظلات وأن نخبر بذلك ثكنة عسكرية غير بعيدة عنا، وقد أمضينا هناك نحو عشرين يوما، ولكننا لم نصادف سوى حادث واحد عندما هبط طيار بالمظلة إثر سقوط طائرته المغيرة على بعد كيلومتر منا، وهكذا هرعنا جميعا تجاهه عدا واحد فقط من مجموعتنا ظل يهتف بحماس: ««روحوا.. ربنا معاكم.. أنا حاحرس لكم هنا البطاطين» وقد أصبنا بخيبة أمل كبيرة عندما وصلنا إلى مكان هبوط الطيار فإذا به قد اختفى بعد أن ألقى الفلاحون القبض عليه وقيل إنهم سلموه للجيش.

كانت أمى قد أصيبت بالسرطان قبل وفاتها، ولكنها ظلت تصارعه بشجاعة وإصرار وكذلك بتفاؤل مذهل أكثر من خمس عشرة سنة، وكانت مقبلة على الحياة على الدوام تماما كما كانت قبل أن يطالها المرض اللعين.

والواقع أنها لم تكن مرضت من قبل سوى لعدة أشهر فى منتصف الخمسينيات عندما أصيبت بنوبة ربو عندما كنا نعيش فى طنطا، وهكذا نصحها الأطباء بالسكن فى منطقة جافة، فكان قرار العائلة بالانتقال إلى القاهرة حيث كنت أدرس فى قصر العينى وماجد يدرس فى الحربية، وكان والدى قد ترك تعليم البنات ورقى ناظرا لمدرسة المحلة الكبرى الثانوية، ولم يكن قد تبقى على إحالته للمعاش سوى عدة شهور.. وكانت المفاضلة بين حلوان أو مصر الجديدة، فرجحت كفة مصر الجديدة فى النهاية..

كانت مصر الجديدة فى منتصف الخمسينيات ضاحية جميلة هادئة، تم تخطيطها منذ بداية إنشائها وفقا لاشتراطات عمرانية صارمة، وكانت تتميز بمبانيها المتناسقة ذات الطرز الإيطالية والعربية.

ولو كان هناك منا من لم يذهب إلى مصر الجديدة وقتها لكفاه أن يشاهد عبدالحليم حافظ وهو يسير فى شوارعها فى فيلم الوسادة الخالية الذى صور هناك فى الوقت الذى انتقلنا فيه إليها.. ولايزال هناك حتى الآن

شواهد على المعمار القديم ماثلة فى كنيسة البازيليك، وفندق هليوبوليس هاوس الذى أصبح يسمى قصر الاتحادية، وهناك أيضا جروبى والأمفتريون، وكذلك قصر البارون ذو المعمار التايلندى.

ولم يكن مترو مصر الجديدة وسيلة مواصلات مثلى فقط للسكان، بل إنه كان العامل الذى اجتذب الكثيرين مثلنا للسكن فى هذه الضاحية، وكان بالإضافة إلى ذلك يستخدم بغرض النزهة، وكانت عرباته التى صنعت فى بلجيكا نظيفة ومواعيده نموذجا للدقة كما أن ركوبه كان مجانيا فى أيامه الأولى، ولا بد لمن يتذكر أن البارون إمبان الذى أنشأ ضاحية مصر الجديدة منذ أكثر من مائة سنة قد مد خطوط المترو ليشجع الأهالى على السكن فى الحى، أن يتساءل اليوم: كيف فات على كل المسئولين فى مصر من بعد أن يمدوا خطوطا للمترو إلى مناطق مثل الشروق ومدينتى والرحاب؛ حتى تيسر الحياة على سكانها وتجتذب آخرين للخروج من قمقم القاهرة؟

- يعرف سكان مصر الجديدة من عاثوا فيها فسادًا .. دمروا القصور القديمة لتبنى مكانها عمارات لوزراء مبارك وأعوانه وأنجاله

مصر الجديدة

ولكن السؤال الأول هو: كيف تدهور حال مصر الجديدة على النحو الذى نراه الآن؟ لا شك أن الزيادة السكانية الهائلة قد تكون العامل الأهم، لكن الذى خرب مصر الجديدة فعلا هو الفوضى التى اجتاحت مصر كلها فأتاحت للكل أن يضربوا بالقوانين واللوائح عرض الحائط، والفساد الذى شاع من قمة الحكم إلى قاع المحليات.

ويعرف سكان مصر الجديدة الأصليون، الكبار الذين عاثوا فيها فسادا، كما يعرفون الوافدين الجدد منهم بالاسم، ويعرفون ما دمروه من القصور القديمة لتبنى مكانها عمارات فارهة أصبحت سكنى لعدد من وزراء مبارك وأعوانه وأنجاله وأصفيائهم، وعلى الرغم من أن سوزان مبارك كانت حريصة على إقامة لمسات تجميل فى الحى هنا وهناك مثل منع مرور السيارات فى الكوربة كل يوم جمعة أو بناء مكتبة باسم الحى أو إقامة

حديقة باسمها، فإن هذه كانت مجرد لمسات لتجميل البيئة المجاورة لقصرها، أو كانت استكمالا لديكور استقبالها مع الجوقة التى كانت تصاحبها فى المناسبات المعدة سلفا للتصوير.

ظهرت نتيجة امتحانات ثانية طب فى المساء، ونقلت إلى السنة الثالثة وإن كان علىّ أن أدخل امتحان الإعادة بعد شهور فى التشريح والفسيولوجى، ولكننى قبل أن أذهب إلى البيت لأخبر العائلة بالنتيجة، توجهت أولا إلى أخبار اليوم لعلِّى أستطيع مقابلة الأستاذ مصطفى أمين.

لم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق وفوجئت به بعدها يطلب سكرتيره سليم فى التليفون ويبلغه بأننى سأعمل محررا فى مجلة «آخر ساعة» وأن مرتبى سيكون 15 جنيها شهريا.

بعد ذلك جاءنى زميلى محمد العزبى يبلغنى بأن هناك عرضا لكلينا من مجلة «التحرير» مقابل راتب قدره خمسة وعشرون جنيها.

كانت مجلة «التحرير» تصدر عن «دار التحرير للطبع والنشر» التى تصدر كذلك جريدة «الجمهورية»، وكانت الدار أنشئت عام 1953 لتتحدث بلسان الثورة، وكان رئيس تحرير المجلة هو المقدم عبد العزيز صادق، أحد أعضاء الصف الثانى فى «الضباط الأحرار»، ولم يكن تولى ضابط لمثل هذه المهام أمرا يلفت النظر فى تلك الأيام التى بدأ فيها الضباط يتسربون إلى الصحافة والإذاعة.

آه يا دمشق 1959 – 2011

طلب منى زميلى فى مجلة «التحرير» أسعد حسنى فى فبراير 1959 أن نلتقى مع نصوح بابيل نقيب الصحفيين فى سوريا وصاحب جريدة «الأيام»، ذهبنا إلى هناك وأنا على يقين أن أسعد رتب لى اللقاء حتى أجرى حديثا للمجلة مع الرجل، وأنه صاحبنى لأنه صديق له.

لم تستغرق المقابلة سوى وقت قصير للغاية، كل ما فهمته فى الدقائق الأولى أنه متحمس للوحدة بين مصر وسوريا، وبعدها دخل مباشرة فى الموضوع، جريدته كانت عريقة وشهيرة فى سوريا، وهو راضٍ عنها تماما، إلَّا أنه غير راضٍ عن إخراجها الصحفى؛ ولذلك فهو يعرض علىَّ أن أكون مسئولا عن ذلك، وفاجأنى الرجل بأنه يود لو أجبته فى الحال إذا كنت على استعداد للسفر معه إلى دمشق خلال الأسبوع نفسه.

أجبت بالإيجاب حتى قبل أن أعرف الراتب الذى سيعرضه؛ وعندما أخبرت أبى بالأمر سألنى سؤالا واحدا: «وما الذى ستفعله بدراستك؟» قلت إن زملائى سوف يوافونى بالكتب والمذكرات، ووعدت بالحضور إلى القاهرة لأداء الامتحان، كنت على يقين أن العائلة لن تمانع؛ فقد ربانى أبى وأمى على حب السفر، بل كانا يحرضانى عليه.

فسنة 1958 كنت سافرت إلى سوريا، وكانت الوحدة وقتها قد أعلنت، وكان معى زميلى السابق فى كلية الطب صبرى أيوب نصيف.

فى اليوم التالى للزيارة تلقيت مكالمة تليفونية فى الفندق، قال المتحدث إنه المقدم طلعت صدقى من المكتب الثانى، أى مخابرات الإقليم الشمالى، وإنه يريد أن يقابلنى.

قال إنه يود أن يحدثنى فى موضوع مهم: «يا أخ حمدى لماذا تعملون وحدكم؟» لم أفهم السؤال، ولكنه استمر يسأل: «لماذا لا تستعينون بنا؟ هل تعتقدون أنه بعد أن تقضوا فى دمشق أياما معدودة فقط تستطيعون الحصول على المعلومات الصحيحة اللازمة؟.«

بدأت مقاصده تتضح فنفيت أى صلة لنا بالمخابرات المصرية، فقال لى: «سواء كنتم تعملون للمخابرات المصرية أم لا، فسوف أعرض عليك الآن عرضا أرجو ألا تتحرج من رفضه على الفور لو أردت، أما إذا كنت تود أن تقدم لسوريا وللعروبة خدمة فسوف أكون شاكرا.«

صمت برهة وصمت أنا الآخر، فاستطرد يقول: «تعرف مشكلة لواء الإسكندرونة»، قلت: «أعرفها.. هذه أرض سورية استولى عليها الأتراك»، قال: «ونحن نجاهد من أجل استردادها، ويعمل فيها رجالنا على الدوام، ولكن مجموعة منهم ألقى القبض عليه فى العام الماضى، وهم الآن يحاكمون، ولدينا رسالة مهمة يمكن أن تساعد على تبرئتهم، وهذه الرسالة نريد تسليمها إلى القنصل (السورى) فى إسطنبول.«

ذكر لى اسم القنصل الذى لا يحضرنى الآن، وسألنى إذا ما كنت على استعداد لتوصيل الرسالة، أشهد أنه نبهنى بشدة إلى مخاطر المهمة، وأبلغنى بأن المخابرات التركية لو ضبطت الرسالة معى أثناء التفتيش الدقيق على الحدود فربما يكون مصيرى الإعدام.

وافقت دون تردد، ولكننى قلت إن لى شرطا واحدا هو أن أبلغ السفير فى أنقرة، التى سأزورها بعد زيارتى لإسطنبول، قال: «افعل ما ترى.. المهم أن تصل الرسالة بسرعة.«

فى اسطنبول

قدَّرت أنه مادامت الصحف العربية ممنوعة فى تركيا، فسوف تلفت المجلة نظر ضابط الجمرك، والأرجح أنه سيركز اهتمامه فيها، وبذلك لن يلتفت إلى المظروف، يا إلهى، هذا ما حدث تماما عندما بلغنا نقطة الحدود التركية، صادر الضابط المجلة ولم يفتش الحقيبة، أحمدك يارب، السؤال الوحيد الذى سأله لى الضابط هو ما إذا كان معى بن أم لا، وهو السؤال نفسه الذى وجهه لكل الذين معنا فى السيارة؛ إذ يبدو أن مهربى البن كانوا كثيرا ما يستخدمون هذا الطريق.

عندما وصلنا إسطنبول أخذت أعد الساعات حتى يأتى الصباح وأسلم الرسالة، كانت تعليمات طلعت صدقى ألا أتصل بالقنصل، وإنما أن أذهب إلى القنصلية فى الصباح كمواطن عادى وأطلب مقابلته، وسوف يكون

مستعدا لاستقبالى، وهذا ما حدث، بعدها ذهبت إلى أنقرة وأبلغت السفير بالأمر.

منذ اليوم الأول عاملنى نصوح بابيل كأب لا كصاحب عمل، كان حريصا على راحتى الشخصية أولا، على سكنى وما إلى ذلك، بل إنه وفقا للعقد الذى وقعناه كان عليه أن يدفع لى مرتب شهر مقدما إلَّا أنه قال إنه ملتزم بوعده لكنه سيعطينى نصف المبلغ فقط خشية أن تضيع الفلوس فى «الكلام الفارغ» إذا ما تسلمتها دفعة واحدة، وقال إنه سيحتفظ بالباقى لديه إلى أن أطلبه وقت الحاجة.

حين غادرت الجريدة بعد انتهاء فترة عملى المؤقتة بها، شاءت الصدف أن ينطلق مشروع لصحيفة يومية جديدة فى دمشق هى جريدة «الجماهير» التى التحقت بالعمل بها بدعوة من القائمين عليها، وكان وراءها قطبان شهيران فى حزب البعث، د. جمال الدين الأتاسى ود. عبد الكريم زهور، وكان كلاهما يمثل جناحا ذا صبغة اشتراكية مميزة فى الحزب الذى أصدر قرارا بحل نفسه فى اليوم التالى لإعلان الوحدة، أى فى 23 فبراير 1958.

انتظم العمل، ولم يكن هناك ما ينغصنى سوى ذلك التوتر المكتوم بين مؤسسى الجريدة وبين عبد الحميد السراج الذى أصبح وزيرا لداخلية الوحدة ورئيسا للمكتب التنفيذى للإقليم الشمالى، وكان هذا التوتر يعكس فى حقيقته العلاقة المضطربة بين البعث والسراج؛ أقرب الضباط السوريين إلى عبد الناصر.

الانتخابات

أعلن وقتها عن إجراء الاتحاد القومى لأول انتخابات له فى دولة الوحدة التى كنت واحدا من الملايين المتحمسة لها، فقررت أن أرشح نفسى فى دمشق لمجرد أن أؤكد أن هذه الوحدة واقع وليس مجرد شعارات.

قدمت أوراقى إلى وزارة الداخلية كما هو مقرر، ولكن لم تمضِ أيام حتى اتصل بى ضابط مصرى شاب يعمل فى مكتب الاتصال المصرى فى

الداخلية السورية، وهو المكتب المعنى بشئون المواطنين المصريين المقيمين فى الإقليم الشمالى، وطلب منى الذهاب إليه، وفى مكتبه فاجأنى عندما طلب منى سحب ترشيحى، عندما سألت عن السبب، قال: «أصارحك، أنت المصرى الوحيد الذى رشح نفسه فى سوريا، وإذا سقطت فى الانتخابات فسوف يستغل ذلك للنيل من الوحدة»، عبثا حاولت أن أجادل، فقد قال الضابط بحسم: «أمامك 48 ساعة لتقرر وإلَّا فإننا سوف نصادر بطاقتك الشخصية ونعتبر ترشحك لاغيا.«

نشرت مقالا فى «الجماهير» حكيت فيه القصة بتفاصيلها، وفى اليوم التالى وصلنى إخطار رسمى بأن ترشيحى اعتبر لاغيا لأن «أوراقه ليست مكتملة»، وصودرت البطاقة.

لم تمضِ أيام حتى وقعت أزمة أخرى داخل الجريدة بسبب تحقيق صحفى قام بنشره صديقى الصحفى المصرى الشهير سعد زغلول فؤاد.

سعد لم يكن صحفيا فقط، لكنه كان أيضا فى طليعة الفدائيين فى حقبة النضال من أجل الاستقلال فى الأربعينيات والخمسينيات، وكانت له صولات وجولات على امتداد الوطن العربى كله، حكم عليه خلالها بالإعدام مرتين وأفلت من المشنقة، وقاتل إلى جانب الجزائريين أثناء ثورتهم، ورافق الفلسطينيين فى كفاحهم سنوات، وظل على الدوام نقيا صافى النفس لا يملك من الدنيا إلَّا ما يكاد يستره، حتى استراح من رحلته المضنية فى الحياة.

كلف سعد مع مصور الجريدة «سركيس بالجيان» بإعداد تحقيق صحفى حول انتخابات الاتحاد القومى، وبالفعل قدم التحقيق فى اليوم التالى، إلَّا أنه أسهب كثيرا فى التفاصيل حتى إن التحقيق تعدى الصفحة المخصصة له فاختصرت منه نحو فقرتين عند النشر.

جاء سعد فى المساء إلى مقر الجريدة فى حى «المهاجرين» على حافة جبل قاسيون فى دمشق، وكان مكتبى فى قاعة كبيرة أجلس فى جانب منها فى حين يجلس فى الجانب الآخر «إميل شويري» مدير التحرير.

وما إن أبلغت سعد بأننى قمت بالاختصار حتى ثار، كان يعتقد أن إميل هو الذى حذف ما حذف لأنه بعثى، ولأن التحقيق الصحفى شهد بنزاهة التصويت والفرز الذى أشرف عليه السراج عدو البعث، لم يصدق سعد أننى الذى قمت باختصار التحقيق، وفجأة قفز إلى الجانب الآخر من الغرفة ليبدأ بينه وبين إميل تلاسن حاد، انتهى بأن التقط سعد مطفأة السجائر من على مكتب إميل وقذفه بها فى وجهه، كان هذا آخر أيام سعد فى الجريدة.

إلى بيروت

بعد هذه الواقعة بأيام وصلنى مقال الدكتور جمال الأتاسى قبل أن أتناول إفطارى، فقد كان معتادا أن يرسل مقالاته بانتظام، كانت مقدمة المقال معتادة تعكس الأزمة المألوفة مع السراج ومع السلطة فى القاهرة التى كتب عنها الأتاسى مرات من قبل، ولكن اللهجة هذه المرة كانت حادة، بل إنها تصاعدت حتى قال الأتاسى فى نهاية المقال: «عندما توصلت مع أخى عبد الكريم زهور إلى تحليل المرحلة، والمخاطر الخارجية والداخلية، وسيادة عقلية كمال الدين حسين وعبد القادر حاتم وغيرهما فى إدارة المجتمع على النقيض من عقلية الرئيس عبد الناصر، وجدنا أن الحل الوحيد المتاح لنا هو الاعتصام بالصمت كتعبير عن الاحتجاج»، وهكذا صمتت «الجماهير» وتوقفت عن الصدور فى عام 1959.

قال سعد: «لا تحمل همّا.. سنسافر إلى بيروت».. كانت بيروت بالنسبة لى حلما لم أستطع تحقيقه طوال إقامتى فى دمشق، وكانت وقتها مركز السياحة والتجارة فى المنطقة، وقبل هذا وذاك منبر الصحافة العربية الحرة.

حزمنا حقائبنا، ووضعناهما فى سيارته «الفورد» العتيقة المكشوفة، وانطلقت بنا السيارة صوب الحدود اللبنانية عبر طرق جبلية يعرفها سعد جيدا، وعندما عبرنا الحدود إذا بالجو يمتلئ فجأة بأزيز الرصاص.

قال سعد: «لا تخش شيئا، هذه الطلقات هى تحية لقدومنا، فنحن الآن فى أرض لبنانية يقيم بها الدروز التابعون للشيخ شبلى أغا العريان، وهو ورجاله أصدقائى منذ كنت أهرِّب لهم السلاح فى العام الماضى عندما كانوا يقاومون الرئيس اللبنانى كميل شمعون الذى استدعى الأسطول السادس لضرب مصر وسوريا»، وهكذا واصلنا السير إلى قلب بيروت حيث أقمنا فى فندق متواضع صغير.«

كان الفندق فى «ساحة البرج»، لم أعد أذكر اسمه، وكان أفضل ما يميزه أنه كان يقبل الزبائن دون حاجة إلى جواز سفر، أما أسوأ ما فيه فكان الغرفة التى أعطوها لنا، فقد كان فى الغرفة سرير ثالث خال ولكنه شغل فى اليوم التالى بزبون جديد كان شابا أمريكيا فى عمرنا.

فى المساء أخذنى سعد إلى شرفة الغرفة المطلة على الساحة وهو بادى الغضب.. قال: «الواد ده CIA ، لازم نمشى».. عذرته، إذ كان قد قضى الكثير من أيامه مطاردا فقلت: «فى كل الأحوال أنا لا أستطيع البقاء معه تحت سقف واحد.. رائحة جواربه تقتلنى.«

عدت إلى دمشق بعد نحو عام من هروبي؛ حيث كنت موفدا من تليفزيون القاهرة لمدة أسبوع أقرأ فيه نشرات الأخبار فى تليفزيون دمشق، وكان زملاؤنا السوريون يأتون هم الآخرون إلى القاهرة بين وقت وآخر تنفيذا لبرنامج التبادل بين المحطتين.

بشار الأسد

أصبح لى هناك أصدقاء سوريون لا حصر لهم، وأذكر طلال الزين، وهو واحد من أكبر ملاك ناقلات الغاز فى العالم، الذى التقيته فى اليونان عام 2003 عندما أقامت السفارة المصرية حفل استقبال لسوزان مبارك أثناء زيارتها لأثينا، وكان الحفل فى واقع الأمر لجمع التبرعات للمشروعات الخيرية التى ترعاها حرم الرئيس السابق ولمكتبة الإسكندرية أيضا، وكان الزين مدعوا فتبرع بشيك بمليون دولار، ولكنه جاءنى بعدها إلى الفندق مندهشا من أن الشيك أعيد له حتى يعيد كتابته باسم سوزان مبارك!

لم تتح لى فرصة اللقاء بالأسد الأب من قبل ولكنى التقيت الرئيس بشار عدة مرات عام 2006 و2008.

عندما جلسنا معا فى أول لقاء عام 2006 قلت له: «يا دكتور بشار، أنتم لم تستفيدوا من درس الانفصال بين مصر وسوريا، وأنت تعرف أن واحدا من أسبابه كان سلوك بعض ضباط القيادة المصريين المقيمين فى دمشق، أنتم الآن تكررون الخطأ نفسه، لكنه بدلا من أن تكون سوريا هى المفعول به أصبحت هى الفاعل.«

وعندما أوشكت المقابلة أن تنتهى قلت: «يا سيادة الرئيس، إن كان لى أن أطلب منك شيئا واحدا قبل أن أغادر فهو ضرورة أن تقود بنفسك انفراجة سياسية داخلية، وأن تقترب من معارضيك وأن تفرج عن المعتقلين السياسيين»، فقال: «وعد سوف أفى به، ولنا فى ذلك لقاء آخر.«

وجاء اللقاء الثانى بعدها بأسابيع، سافرت إلى لبنان ضمن وفد شعبى مصرى بعد نشوب حرب تموز (يوليو) 2006 مباشرة، أذكر أننا عندما تجمعنا فى تظاهرة فى مطار القاهرة اقترب منى أحد لواءات الشرطة وهمس فى أذنى: «قل لحسن نصر الله إن مصر كلها معاه.«

بعد ذلك بأسابيع أخرى كان لقاؤنا الثالث عندما لبى الرئيس بشار طلبى بإجراء حديث حول حرب «تموز» لتليفزيون دبى، وتطرقت إلى الموضوعين الحساسين لديه: لماذا لم يطلق الجيش السورى طلقة واحدة فى الجولان، ولماذا لا يفرج عن المعتقلين السياسيين؟ ولم تكن إجاباته شافية.. عندما تحدث عن الجولان مثلا قال إن المقاومة هناك «قرار شعبى، ومن غير المنطقى أن تقول دولة إنها ستذهب إلى المقاومة؛ لأن الشعب يتحرك للمقاومة بمعزل عن دولته عندما يقرر هذا الشىء»، أى أن الشعب هو المسئول!

وقلت له يومها أيضا إن «أول حق للناس فى وطنهم أن يتكلموا بحرية»، وعدت لأذكِّر أن جماعة مثل جماعة منتدى الأتاسى أو مثل الأعضاء فى الاتحاد الاشتراكى وآخرين غيرهم قد يكونون أكثر ولاء لبلدهم وهم فى المعتقل من بعض الذين خارج السجون، ولكنه رد بـ«الكليشيه» التقليدى:

«لا نريد الحريات التى تستغل من الخارج.. نريد حريات ضمن إطار الوطن.«

الثورة السورية

عندما اشتعلت الثورة فى سوريا بعد مصر تعاطفت مع الثوار مثلما تعاطف معظم المصريين الذين هبوا ضد الاستبداد والفساد فى بلدهم، ولكننى لم أعلن ذلك صراحة فى البداية، وتفاقمت الأمور على نحو ما نعرف، وامتدت الثورة إلى مناطق أوسع.

وقتها هاجم أعوان بشار رسام الكاريكاتير المعارض الشهير على فرزات فى ساحة الأمويين وهو عائد إلى بيته فجرا وأوسعوه ضربا على يديه وأصابعه فنقل إلى المستشفى مصابا بارتجاج فى المخ «علشان تتلم ماترسمشى ضد أسيادك»، وكان إبراهيم قاشوش الذى غنى أغنية الثورة الشهيرة «ياللا ارحل يا بشار» قد ذبح من حنجرته قبلها بأسابيع على أيدى الشبيحة أنفسهم.

عندها وصل بى الاستفزاز إلى مداه فقلت فى برنامجى الذى كنت أقدمه فى قناة «التحرير» حينئذ إن أمثالى «اللى كانوا بيشوفوا أمل فى بشار الأسد فى وقت ما، لا يمكن بعد كل المجازر اللى حصلت يقفوا النهارده جنب نظامه، مهما كنا متأكدين إن قوى أجنبية بتستهدف هذا النظام.. اللى عارف إن فيه قوة أجنبية متقصداه ما يديلهاش فرصة، ما يفتحلهاش الباب.«

وأيقنت أن بشار وصل فى عناده إلى نقطة اللاعودة، فحسمت أمرى وواصلت الوقوف إلى جانب المعارضة، ولكن الأمور تطورت على النحو الذى تطورت إليه فيما بعد، وهالنى التدخل الفاضح للغرب الذى كان يهدف إلى إسقاط بشار منذ زمن.

فى 21 يوليو 1960، بدأ إرسال «التليفزيون العربى» ولم تمر شهور حتى طلب منى رئيس تحرير الأخبار بهى الدين نصر أن أقرأ لأول مرة نشرة أخبار التاسعة الرئيسية.

لما حاولت التملص أبلغنى أن هذه أوامر، «الدكتور حاتم قال: خلوا الجدع السورى ده يقرا لنا النشرة الليلة دى»، وضحك. كان عبدالقادر حاتم يعرف العاملين جميعا واحدا واحدا، إذ لم يكن عددنا عندئذ فى التليفزيون كله يزيد على 600، وكان يظن أننى سورى ربما لأن أحدا أبلغه أننى كنت أعمل بالصحافة فى سوريا قبل التحاقى بالتليفزيون.

كان من المقرر أن يقرأ أنور المشرى تلك النشرة، وكانت أوراقها بالفعل فى يده عندما أبلغوه أن يتخلى عنها لى، لم يغضب، وبرقة بالغة وحرص صادق طلب منى أن أقرأ النشرة أمامه قبل أن أقرأها على الهواء حتى يطمئن إلى إلقائى.

عندما بدأت تقديم برنامج «أقوال الصحف» فى سبتمبر 1961 توقف بعد الحلقة الخامسة، قال لى رئيس تحرير الأخبار: «الوزير بيقول لك استريح شوية». كانت هذه هى الشفرة فى ذلك الحين للإعراب عن غضب السلطة، بعدها علمت أن سبب الغضب هو أننى أوردت خبرا عن الرئيس عبدالناصر فى نهاية البرنامج وليس فى بدايته.

ذهبت إلى مكتب الرئيس فى منشية البكرى، وطلبت مقابلة سامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات، قلت له: «يا سامى بك، أريد أن أعرف من الرئيس شخصيا إذا كان يعترض على إذاعة خبر عنه فى نهاية برنامج»، وحكيت له الحكاية، ضحك سامى شرف وطلب منى الانتظار فى استراحة مكتبه.

بعد قليل نادانى ثانية، وقال: «الريس بيقول لك خد الجرايد وروح على الأستوديو بتاعك على طول من غير ما تكلم حد.«

فى سنة 1963 كان يصلنى فى مبنى التليفزيون قفص من المانجو الفاخر كل أسبوع دون أن أعرف مصدره،، وعندما طلبت من الأمن أن يتحرى الأمر أخبرونى أن القفص جاء مع سائق سيارة ليموزين سوداء فارهة ولكنه يرفض الإفصاح عن اسم المرسل.

انتظرت للأسبوع التالى، وتتبعت السائق، وما إن ركب السيارة حتى فتحت بابها الخلفى وقفزت داخلها، أخذت أسأل: «مين اللى قاعد جنبى؟ مين اللى قاعد جنبى؟»، وعندما جاءنى الجواب عرفت أنها امرأة.

طلبت منها أن تخلع الخمار، وعندما فعلت تمنيت لو لم أكن ألححت فى الطلب، كانت دميمة للغاية فغلبنى إحباط شديد، ولكننى حاولت أن أكون لطيفا بل وافقت على تلبية دعوتها على العشاء، ذهبنا إلى كازينو مجاور لقصر العينى الجديد، وما إن جلست حتى نادت النادل: «هات له كيلو كباب.«

كظمت غيظى وأنا أقول لها: «أولا أنا الذى أنادى الرجل لا أنتِ، ثانيا ما حكاية هات له هذه؟ وأخيرا: الكباب هنا ليس بالكيلو ولكنه بالطبق.«

بعد العشاء مدت يدها تحت المائدة وبدأت تلعب فى بنطلونى فاستعذت بالله من الفضيحة التى يمكن أن تحدث، حتى اكتشفت أنها تمد لى يدها بعشرة جنيهات لأدفع الحساب، اعتذرت شاكرا، وتنفست الصعداء عندما غادرت، ولما جاء الثلاثاء التالى ولم يصل قفص المانجو لعننى كل الزملاء الذين كانوا ينتظرون القفص كل أسبوع. ما أذكره عن تلك السنوات من حياتى فى التليفزيون أننا كنا سعداء، راضين برواتبنا المتواضعة، بدأت بـ 14.5 جنيه، وانتهت بـ 55 وكنت أتقاضى 70 جنيها بدل ملابس فى السنة، فى هذه السنوات اشتريت سيارة نصر 1300 بقسط شهرى 20 جنيها على مدى 24 شهرا، كما تزوجت من زميلتى مذيعة النشرة الفرنسية فى الإذاعة علية البرعى فى عام 1966 فى حفل استقبال فى فندق شبرد أظن أنه كان أنيقا كلفنى 240 جنيها، بالتقسيط أيضا.

عندما علم الأستاذ أنيس منصور بنيتى فى الزواج قال لى: «اوعى تعملها يا حمدى، إنت طالع، واللى طالع لازم يخفف الحمولة»، أشهد أن حمولتى

لم تحل بينى وبين ارتقاء درجات السلم، إن لم تكن قد دفعتنى إلى مزيد من الصعود.

بعد حفل افتتاح مهرجان التليفزيون الدولى فى الاسكندرية عام 1964، وعندما أوشكت أن أغادر قابلت سعاد حسنى ولما علمت أننى مغادر إلى القاهرة طلبت منى أن أصطحبها معى لأنها مرتبطة بتصوير فى القاهرة.

انطلقنا حتى وصلنا إلى الاستراحة فى منتصف الطريق الصحراوى، وهناك غلبنى الإجهاد والنوم فسألتها إذا ما كانت تستطيع قيادة السيارة بدلا منى فقالت إنها متعبة تماما، وهكذا استغرقنا فى النوم كل فى كرسيه حتى جاء موظف فى المكتب ودق على الزجاج: «إصحى يافندى النهار طلع»، ولا أظن أنه تبين أن النائمة إلى جوارى هى سعاد حسنى.

وما أدراك ما الستينيات

كنا فى عام 1962 عندما طلب التليفزيون منى فى الدقيقة الأخيرة تقديم حفل نادى ضباط الجيش بالزمالك مساء 26 يوليو احتفالا بالذكرى السنوية لطرد الملك، بعدما تغيب عن الحفل مقدمه الأصلى.

عندما وصلت علمت أن مهمتى ستقتصر على تقديم أم كلثوم، وجدت أن الأمر لا يحتاج إلى عناء، وصعدت إلى خشبة المسرح فوجدت أمامى على بعد أمتار جمال عبدالناصر جالسا فى الصدارة ومن حوله أعضاء مجلس قيادة الثورة، لكننى لم أتحقق من شخصياتهم لأننى لم أستطع أن أحول نظرى عن عبدالناصر، وعلى الرغم من أنه ابتسم ابتسامة عريضة مشجعة فإن رعشة خفيفة أصابتنى، وبعد ثوانٍ من الصمت قلت: «أيها السادة، إليكم أم كلثوم»، وقفلت عائدا، فوجدت أم كلثوم فى طريقى تتقدم على خشبة المسرح، فاستوقفتنى وقالت: «ده كل اللى ربنا فتح بيه عليك؟.«

جحيم النكسة

أتذكر يوم 5 يونيو 1967 بكل تفاصيله، عندما وصلنا إلى الشئون العامة للقوات المسلحة قيل لنا إننا سنذهب إلى قاعدة فايد الجوية التى سيصل

إليها الفريق طاهر يحيى، رئيس وزراء العراق، ليتفقد القوة العراقية المرابطة هناك، وسيرافقه فى الزيارة حسين الشافعى نائب الرئيس.

كان معى المصوران محمد رجب وفاروق صالح، ومهندس الصوت محمد البلتاجى، وصلنا وقت الإفطار، فتناولنا إفطارنا مع الطيارين المصريين فى «ميس» الضباط، ثم قمنا بتصوير وصول الضيف العراقى، وبعدها اتجهنا إلى القوة العراقية التى كانت تقوم بتدريبات روتينية.

وفجأة، بينما نحن هناك إذا بدوى انفجار هائل تبعته انفجارات أخرى متتالية، وكانت الساعة وقتها تشير إلى التاسعة إلَّا الربع، أخذتنا المفاجأة فلم نتبين تماما ماذا حدث، إلَّا أننى بعد دقائق لمحت طائرة تحترق عن بعد على المدرج، وبعدها مباشرة لمحت طائرة إسرائيلية تمرق فوقنا فى الجو، وتتالت الانفجارات، سارعنا إلى سيارة التليفزيون، وعندما سألنا السائق: إلى أين؟ قلت: «تحرك فى أى اتجاه لكن بسرعة.«

بعد أن ذهبت بنا السيارة يمينا ويسارا ونحن لا نعرف أين المفر، انتهى بنا الأمر فى نادى الطيارين على ضفاف القناة، كان هناك نحو 20 طيارا يتصايحون بهستيريا، وظل واحد منهم يخبط رأسه فى جدار حتى سال منه الدم.

فهمت من أحدهم أن معظمهم فقدوا طائراتهم قبل أن يصلوا إليها، وأن ثلاثة من زملائهم فقط استطاعوا الطيران لكنهم لا يعلمون مصيرهم.

خرجت من المكان قبل أن أصاب بالجنون، وعندما وصلت إلى السلم الأمامى إذا بسيارة جيب مكشوفة قادمة وفيها حسين الشافعى جالس إلى جوار الجندى السائق، سألنى إن كانت لدىّ معلومات مفصلة عما حدث فأجبته بما أعرف، قال إنه سيعود إذن إلى القاهرة، لكنه استدرك: «تفتكر ناخد أى طريق؟»، نصحت بالطريق الصحراوى.

عدنا نحن على الطريق الزراعى الذى كان يمر بثلاثة مطارات عسكرية هى أبوصوير ثم بلبيس ثم أنشاص، لعلنا نستطيع أن نجد شيئا مناسبا للتصوير، وكانت الطائرات الإسرائيلية تدوى فوق رءوسنا بين حين وآخر

فنغادر السيارة ونرتمى إلى جانب الطريق، أما المطارات فكانت تتصاعد منها النيران جميعا، فى حين كان راديو السيارة ينقل لنا أخبارا عن عشرات الطائرات التى أسقطتها قواتنا.

المؤكد أن قيادة الجيش خدعتنا خدعة كبرى، وللأسف فإننا تحققنا من ذلك بعد ساعات، فقد علمت فى صباح اليوم التالى 6 يونيو أن عبدالحكيم عامر أصدر قراره فى الفجر بانسحاب الجيش من سيناء.

بالرغم من شعبية عبدالحكيم عامر بين كثير من الضباط، فإننى لم أنبهر به على مدى السنوات القليلة السابقة منذ انفصال سوريا عن دولة الوحدة فى سنة 1961، وذلك بسبب سلوك أعوانه المدللين فى دمشق وبسبب فساده الذى انتشرت روائحه فى القاهرة، ولم أكن أعتقد أنه يملك الكفاءة اللازمة لقيادة جيش مثل جيش مصر.

التنحي

يوم 9 يونيو عندما ألقى عبدالناصر خطاب التنحى، كنت فى أستوديو 4 وقتها مع همت مصطفى حيث قدمنا الخطاب الذى بدأ بثه من بيت عبدالناصر فى منشية البكرى فى السابعة مساء، ولما وقعت المفاجأة المذهلة عندما قال: «قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أى منصب رسمى أو دور سياسى»، وقبل أن يكمل الخطاب حتى نهايته، قررنا معا أن نطالب عبدالناصر بالبقاء.. «كلام رجالة؟»، سألت همت.. قالت: «كلام رجالة».. انطلقنا فور أن انتهى الخطاب.

بعد دقائق طلبنا الوزير إلى مكتبه، وعندما دخلنا صاح فينا: «إنتو عملتوها مسرحية؟ الريس يتنحى وبعدين التليفزيون بتاعه يقول له: لأه؟».. جادلته همت، وانطلقت أنا إلى شباك مكتبه أفتحه وأقول له: «يا سيادة الوزير اسمع الناس وأنت فى الدور التاسع بتقول إيه»، كان الصياح من حوارى بولاق يتصاعد مطالبا الرئيس بالبقاء وتحمل المسئولية، ولم نكن ندرى وقتها أن مصر كلها بل وشعوب العرب جميعا تطالبه بأن يبقى.

أثبتت الأيام أن بقاءه كان الضمان الأول لاستنهاض الهمم وبدء حرب الاستنزاف ووضع الخطة التى كانت أساسا لحرب أكتوبر، وفى أيام قليلة بدأ الجيش يستعيد روحه فانتصر فى معركة رأس العش بعد ثلاثة أسابيع فقط من النكسة، ثم أغرق الباخرة إيلات وبدأ حرب الاستنزاف عندما رفع عبدالناصر شعار «لا صوت يعلو على صوت المعركة»، واستهل هذه الحرب بإقامة حائط الصواريخ الشهير.

فى 28 سبتمبر 1970 انتقل عبدالناصر إلى بارئه، ما إن تتالى بث آيات القرآن الكريم على الشاشة وأنا فى البيت حتى هرولت إلى مبنى التليفزيون، طردت من ذهنى أن يكون عبدالناصر قد أصابه سوء، ومع ذلك فقد طاردنى هاجس أنه ربما يكون قد اغتيل، ولعل هذا ما دفعنى إلى الذهاب لا إلى إدارة الأخبار وإنما إلى مكتب الوزير.

هناك كانت تنتظرنى الصاعقة.. لم يكن الأستاذ هيكل الذى عين وزيرا للإعلام قبل عدة شهور فى المكتب.. حضر أنور السادات ليلقى البيان، وصحبته إلى أستوديو 4، وتهيأتُ لأن أقدم السادات وأعلن أنه سيوجه بيانا إلى الأمة، وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة إلَّا خمس دقائق، لكننى قبل أن أظهر على الشاشة بثوانٍ تذكرت فجأة بأى صفة أقدمه، فربما يكون قد حدث فى الساعات القليلة السابقة ما لا أدريه.. سألته: «بأى لقب أقدمك سيادة النائب؟».. رمقنى بنظرة لم أتبين عندئذ معناها وقال: «أنور السادات، مش كفاية كده؟.«!

كان للثورة أخطاؤها ولاشك، وفى مقدمتها مصادرة الحريات وسيطرتها على الإعلام، عن نفسى فقد اعتذرت للإخوان المسلمين منذ سنوات عن الأحاديث التى أجريتها مع المعتقلين منهم فى السجن الحربى عام 1965، وقد راجت فى بعض مؤلفات الإخوان بعدئذ أكذوبة، أننى كنت أطلب من ضباط السجن أن يبدلوا المعتقلين الذين كنت أستجوبهم بآخرين حتى أحصل على اعترافات صريحة، بل إننى كنت أصفع بعضهم إن لم يعترف الاعتراف الذى أريد، وأشارك فى تعذيبهم أحيانا!

أيقنت أننى ارتكبت خطأ مهنيا وأخلاقيا باستجواب معتقلين قيدت حريتهم فاعتذرت، ورحب الإخوان باعتذارى بامتنان، ولكننى عندما اختلفت مع مرسى فى 2012 وهاجمته، عادوا عن طريق تنظيمهم الإلكترونى يذكِّرون، فى لغة لا علاقة لها بدين ولا خلق، بحكاية السجن الحربى ويضيفون إليها روايات وروايات عن عبدالناصر وحكمه وأيام الستينيات التى كثيرا ما كرروا أنهم لم يشهدوا فيها سوى المذابح والمشانق.

عندما جاء عام 1973، ذهبت إلى مكتب الدكتور عبدالقادر حاتم مباشرة، وعندما قابلته قلت: «جئت لأسلم نفسى إذا كان بمقدورى أن أساهم بشىء»، أشهد أن الدكتور «حاتم» لم يتردد، طلب منى النزول إلى الأستوديو مباشرة، حيث أقمت إقامة تكاد تكون دائمة عدة أيام هى الأيام التى سبقت انسحاب القوات المصرية الذى وصفته السلطة وقتئذ بأنه «انسحاب تكتيكى» بسبب «ثغرة الدفرسوار» يوم 15 أكتوبر.

فى ذلك الوقت أجريت الحديث الشهير مع الكولونيل «عساف ياجورى» صاحب أعلى رتبة بين الضباط الإسرائيليين الذين أسرهم الجيش المصرى.

عندما عدت إلى المنزل قابلتنى والدتى بوجه عابس، ثم إذا بها تعاتبنى على إجراء حديث مع ياجورى، لم أستطع أن أضبط أعصابى فصحت: «تعاتبيننى يا أمى على الحديث؟ ليه؟ لأن الرجل كان إسرائيليا؟» قالت: «لا، لأنه أسير»، أفحمتنى إجابتها فلم أنطق بكلمة.

كنت ولا أزال أعتقد أن الرئيس السادات خذل جيشه، إذ إن الجيش كان قد حقق فى الحرب انتصارا مبهرا، وكان باستطاعته التقدم إلى الممرات فى سيناء مما يضع مصر فى موقف تفاوضى أفضل عند انتهاء العمليات العسكرية، لكن السادات أجهض هذا التقدم فى وقت مبكر، حتى إن صديقه «هنرى كيسنجر» قال إنه بدد كل أوراق الضغط التى كان يمتلكها فى البداية.

غزو الكويت

عندما غزا صدام الكويت فى 2 أغسطس 1990 كنت فى غاية القلق على أصدقائى هناك، كنت أريد معرفة ماذا حدث لهم، وخاصة جواد بو خمسين على وجه الخصوص، وكان واحدا من كبار رجال الأعمال فى الكويت، فوجئت برجل يتصل بى من الأردن، يقول بلهجة يمنية: «معى خطاب عاجل من أبو عماد وهو مهم جدا.. أرجوك أن تقابلنى فى عمان.«

هرولت إلى عمان لأتسلم الخطاب الذى أبلغنى فيه بوخمسين أنه نجح فى تهريب عائلته، وأنها فى طريقها الآن إلى القاهرة حيث ستقيم فيها تحت مسئوليتى، ولكن المسئولية الفادحة بالفعل كانت تنتظرنى فى مظروف آخر كبير حمله الرسول ذاته، فقد كانت فيه رسالة مفادها أن «هذه الأوراق هى توكيلات رسمية لك منى بالتصرف فى أموالى»، كانت الأوراق موجهة منه إلى البنوك التى يتعامل معها فى القاهرة وبيروت ولندن، وكانت حساباته فيها بملايين يصعب إحصاؤها، أما سطور الرسالة الأخيرة فكانت بالعامية المصرية: «أما عن نفسى، فأنا مش طالع من هنا.«

بعد أسابيع قليلة جاءنى صوته فى اتصال تليفونى يبلغنى أنه مع أصحابه الذين أعرف بعضهم ينظمون هناك صفوف المقاومة، تبين أن هؤلاء الرجال ومئات غيرهم قد نظموا تحت الاحتلال ما يشبه الحكومة المدنية، وحملوا السلاح وحملوا القلم أيضا.

كان معظم من تبقى فى الكويت وقتها هم أقل الناس دخلا ممن لم يستطع الهرب، وكانت هناك شبكة محكمة تنقل الغذاء والمال ممن عنده إلى من ليس عنده، كانت هناك خلايا من الأطباء المتطوعين، وكان المهندسون وغيرهم من أصحاب المهن يوزعون الخبز والزيت والأرز وكبار القوم يجمعون القمامة.

كان صدام يظن أنه سيكون الطرف الرابح، وكانت الولايات المتحدة تظن أنها الرابحة، ولكننا بعد انتهاء «عاصفة الصحراء» اكتشفنا أن الرابح الوحيد من الحرب كانت الـCNN

كانت محطة تليفزيون CNN قد أنشئت فى الولايات المتحدة فى عام 1980، لكنها لم تعرف على المستوى العالمى سوى بعد غزو الكويت، وربما لهذا يقول كثيرون إنها ولدت مع الغزو الذى كلفت بتغطيته عديدين من مراسليها ونقلت كل أحداث الحرب خطوة بخطوة، وكان كل من الجانبين العراقى والأمريكى يوجه إنذاراته إلى الآخر من خلالها.

بعد دحر القوات العراقية ذهبت إلى الكويت وكان المطار الذى خرجت منه ودخلت مرات ومرات من قبل خرابا يبابا.. «أكو أوامر أن يحرق الأصل (العراق) الفرع (الكويت) وتأكل الأم كالقطط أولادها»، قالها ضابط عراقى بزهو إلى جمع من الأسرى الكويتيين: «المحافظة 19 لا يمكن أن تكون أكثر بهاء من العاصمة بغداد، سنسويها بالأرض حتى تصبح أحقر من أقذر أحياء البصرة»، لكن القدر الساخر جعلنا نرى البصرة تدمر، ومعها كركوك وكربلاء ومائة مدينة ومدينة فى العراق ذاته، أما الكويت فقد ظلت معظم مبانيها على حالها أو أقرب ما تكون إلى ذلك.

ورغم كل الخراب الذى خلفه العراق فى الكويت فإنه يهون أمام الجريمة الكبرى، حيث أحرقت القوات العراقية أكثر من 700 بئر للبترول قبل انسحابها، وهكذا غطت السماء سحابة سوداء امتدت إلى الدول المجاورة (استغرق إطفاؤها 8 أشهر.(

فى صباح يوم 26 سبتمبر 1962، أذيع نبأ قيام انقلاب فى اليمن «السعيد» بقيادة الزعيم (العقيد) عبدالله السلال ومقتل الإمام محمد البدر، خلال قصف قصر البشائر (قصر الحكم) فى صنعاء وقيام نظام جمهورى فى البلاد.

كانت إذاعة «صوت العرب» هيأت الأذهان لقيام الثورة، ودعت قبل أشهر الشعب اليمنى للانتفاض ضد الإمام أحمد حميد الدين، وقبل الثورة بأسبوع واحد فقط، كان قد أعلن فى اليمن عن وفاة الإمام أحمد الذى حكم البلاد لنحو ثلاثين سنة، ولم يعرف أحد على وجه الدقة كيف مات، بل إن الكثيرين شككوا فى أنه مات قبل إعلان وفاته بيوم واحد كما زعم ابنه الإمام البدر، والأرجح أن ذلك كان قد حدث قبل ذلك بفترة، وأن الإمام البدر الذى كان وليا للعهد عندئذ أرجأ إذاعة الخبر حتى يتمكّن من ترسيخ سلطته أولا.

بدأت معارك الإذاعة بين البلدين (مصر واليمن) عندما بث راديو صنعاء فى بداية سبتمبر 1961 هجوما شديدا على عبدالناصر فى قالب قصيدة شعرية من 64 بيتا من تأليف الإمام أحمد حميد الدين، ولم تمضِ أسابيع حتى كال عبدالناصر للإمام الصاع صاعين فى خطبة الاحتفال بعيد النصر.

كان الإمام أحمد يحتفظ بمفتاح الإذاعة فى خزينته الخاصة، وكان المهندس المختص يأخذ منه مفتاحها كل يوم ليفتتح الإرسال ثم يعيد المفتاح إليه بعد ذلك، وكانت مواعيد الإرسال تعتمد على مزاج الإمام وعلى ارتباطاته ومواعيده.

كان عبدالله جزيلان مدير الكلية الحربية ومدرسة الأسلحة هو الذى خطط للهجوم على قصر البشائر، وزود بعض الفصائل التى شاركت فى الثورة فى صنعاء بالسلاح.

وكان المتوقع من الإمام البدر أن يسلم إذا ما حاصرت القوات القصر، لكنه أمر الحرس بإطلاق النار على المهاجمين، وأوفد قائد الحرس الزعيم عبدالله السلال للتفاوض مع الثوار، فأعلن انضمامه لهم ونصَّبوه قائدا عاما

للقوات المسلحة باعتباره صاحب أكبر رتبة عسكرية (هكذا يمكن اعتباره نجيب الثورة اليمنية إذا ما قارنا الوضع بالثورة فى مصر.(

وفى حين أعلنت الإذاعة مقتل البدر فى الهجوم، كان قد تسلل عبر سرداب تحت القصر فى ملابس أحد الحراس، وهرب فى اتجاه السعودية.

استولت «حركة الضباط الشبان» على حامية قصر البشائر وعلى صنعاء على الفور، ولم تستخدم فى ذلك سوى 13 دبابة و 6 مدرعات وبضعة مدافع منها اثنان مضادان للطائرات، وكذلك سيطرت فى الوقت نفسه على حامية كل من تعز والحديدة.

وكانت كل من السفارة المصرية والبعثة العسكرية المصرية فى اليمن على صلة وثيقة بالضباط الشبان، وعلى دراية بالتحضير للثورة ثم بتوقيت إعلانها، ومع ذلك فعندما قامت الثورة أرسل السلال إلى القاهرة برقية نصها: «تسلم فورا إلى قائد العروبة سيادة الرئيس جمال عبدالناصر.. نبلغكم بقيام الجيش بإعلان الثورة والإطاحة بحكم آل حميد الدين.«

فى اليمن الثائر

فى أول أكتوبر سافرنا بطائرة إلى اليمن، كنا مع عدد من كبار ضباط الجيش الذين ذهبوا فى البداية لتقدير الموقف، ورسم الخطط اللازمة قبل أن تبدأ قوات الصاعقة وغيرها سفرها فى اليوم التالى إلى كل من صنعاء وتعز، كانت طائرتنا متجهة إلى صنعاء، وكان مهبط الطائرات فى المطار مجرد طريق ممهد بالكاد، ولا أعتقد أنه كان مرصوفا بالأسفلت، وكان يجاوره كشك صغير لا بد أنه برج المراقبة.

كان تدبير أمور معيشتنا وترتيبات عملنا أمرا صعبا وخاصة ما يتعلق بوسائل النقل، وقد نصحنى محمد عبدالواحد؛ المسئول الوحيد فى السفارة فى ذلك الوقت، أن أتوجه إلى «الزعيم» السلال شخصيا، ولم تكن هناك صعوبة فى تحديد لقاء معه فى اليوم التالى.

قال السلال إنه للأسف لا توجد سيارة يمكن الاستغناء عنها لدى الحكومة، وإن أسرع حل أمامه أن يخصص لى سيارة الإمام البدر.

عندما لاحظ ترددى قال: «هذا هو الحل الوحيد لديَّ الآن»، وهكذا لم يكن أمامى سوى القبول شاكرا، وقد نبهنى يومها إلى أنه لا يمكننا الحصول على بنزين للسيارة إلا بتوقيعه شخصيا، لكن تلك لم تكن أسوأ مفاجأة.

المفاجأة الأسوأ كانت عندما تسلمت السيارة، وكانت سيارة أمريكية فارهة من أحدث طراز فى شركة «شيفروليه» على ما أذكر، وكانت لافتة للنظر إلى حد بعيد؛ لذلك كنت أحاول تفادى ركوبها كلما استطعت.

عندما حضر أنور السادات إلى اليمن لتوقيع اتفاقية التعاون العسكرى بين البلدين، سلمت السيارة لمكتبه؛ إذ لا يليق أن يتحرك مسئول مصرى فى مكانته بسيارة متواضعة فى حين أركب أنا شيفروليه، واستلمتها عند سفره.

حضرت إحدى جلسات السادات خلال هذه الزيارة، وكان يجلس مع بعض شيوخ القبائل اليمنية، ويبدو أن الحديث كان يدور قبل دخولى عن تدخل الإنجليز فى حرب اليمن وعن ذكريات السادات عندما كان يشارك فى المقاومة ضد القوات البريطانية فى القناة أثناء احتلالها لمصر، أذكر أنه قال: «أنا بإيدى خلصت على أذنابهم فى مصر، وكمان دوختهم فى معسكراتهم فى القناة.. كل يوم آجى لهم من حتة.. دوخينى يا لمونة كده» (ربما كان يقصد اتهامه بالاشتراك فى مقتل الوزير الوفدى أمين باشا عثمان رئيس جمعية الصداقة المصرية البريطانية فى عام 1946)، وكان يستخدم يده كما لو كان يعصر بها شيئا.

التفت إلى الشيوخ فلمحت فى عيونهم نظرة دهشة؛ ربما لأنهم لم يستوعبوا تماما ذلك التعبير الغريب على آذانهم، ويبدو أن السادات انتبه إلى ذلك فاعتدل فى كرسيه، وقال: «يعنى إنجليز دخلوا الحرب، الجن الأزرق دخل الحرب، أنا باقول لكم، أنا مش سايب كرسيّه ده إلا لو طلعوا الإنجليز من عدن، يعنى مابنخافشى من الإنجليز، ولا إنتو حتخافوا من الإنجليز ولا من الجن الأزرق»، عندئذ هلل واحد من الشيوخ، ورفع رشاشه بيده، فأخذ السادات يكرر: «يعنى اطمنوا.. اطمنوا تمام.«

بعد أن سجلت رسائلى الأولى مع وحدات الصاعقة، بدأت أجرى أيضا أحاديثَ مع شخصيات يمنية، لعل أطرفها كان الحديث مع محمد حلمى العراف الخاص بالإمام الذى كان يلقب بالفلكى، وكان الإمام لا يقدم على قرار أو يتحرك إلى مكان قبل أن يدله ماذا تقول النجوم فى ذلك.

يومها قال لى إن حسابات الفلك كانت قد أكدت له أن ثورة ستقوم فى اليمن، ولكنه خشى أن يبلغ الإمام أحمد حتى لا يأمر بحبسه أو إيذائه، وقد صدر حكم بإعدام حلمى بعد الثورة بتهمة الفساد، وسجن فى تعز انتظارا لتنفيذ الحكم، وأفرج عنه قبل تنفيذه.

عندما تحركت مع الوحدات المقاتلة خارج صنعاء كان القتال لا يزال حاميا بين الملكيين والجمهوريين، وتوسعت ساحة المعركة فى أنحاء متفرقة فى اليمن، وكان السعوديون لا يكفون عن التدخل بالمال والسلاح، ولكن البعض أخذ على القيادة العسكرية المصرية والسفارة المصرية هناك أنهما أيضا قاما بتوزيع أموال على رجال القبائل لشراء ولائهم.

كانت اليمن مجاهل لم يكتشفها المصريون من قبل، ولم تكن هناك خرائط طوبوغرافية يمكن الاستعانة بها فى العمليات العسكرية، وكانت طبيعة الأرض الجبلية مختلفة تماما عما ألفه المصريون، وقد أنهك ذلك القوات الجوية كما أجهد القوات البرية وواجه الضباط والجنود متاعب عديدة فى التعامل مع اليمنيين الذين لا يعرفون طبائعهم وعاداتهم، وكذلك فى التأقلم مع المناخ، خاصة عندما تتباين درجات الحرارة بين النهار والليل أو بين مناطق الجبال والوديان.

حدثت مفاجأة كبرى فى أوائل أكتوبر؛ إذ أرسلت السعودية طائرة تحمل عتادا عسكريا إلى القوات الملكية فى اليمن، ولكن قائد هذه الطائرة توجه بها إلى مطار أسوان.

وجهت الخارجية السعودية عندئذ خطابا إلى مصر تطلب إعادة الطيارين والفنى الذى كان يصاحبهما إلى الرياض باعتبار أنهم فارون من الخدمة

العسكرية، لكن مصر تجاهلت الخطاب وأعادت شحن العتاد إلى قوات الثورة فى اليمن.

وكانت القاهرة قد رصدت فى ذلك الحين وجود جنود من الحرس الوطنى السعودى ضمن قوات الملكيين، وكذلك عناصر إيرانية (أثناء حكم الشاه عندئذ) وبعض المرتزقة الفرنسيين الذين حاربوا فى الجزائر، والإنجليز الذين حاربوا فى عدن وروديسيا، والبلجيكيين أيضا، وكان يقال وقتها إن هناك ضباطا إسرائيليين همهم الأول هو مراقبة القوات المصرية عن قرب ليتعرفوا على مدى كفاءتها ومواطن ضعفها.

أما الدعم البريطانى فكان مكشوفا ومتوقعا؛ ذلك أن بريطانيا كانت تخشى أن تتسلل الثورة إلى محميتها فى عدن، كما أنها كانت تود الانتقام من جمال عبدالناصر الذى كان يهاجم حلف بغداد.

فى نهاية أكتوبر كانت قوة الجيش المصرى فى اليمن بكاملها تكاد لا تزيد على ألفى جندى، وكان عبدالناصر معارضا فى البداية للتوسع فى التدخل العسكرى، على الرغم من أنه كان يود أن يستعيد مكانته بعد انفصال سوريا عن دولة الوحدة، وأن يساند الثوار فى اليمن الجنوبى، ويهز أركان حكم الملك سعود، ويؤكد زعامته للأمة العربية.

وكانت هناك أفكار بالاعتماد على متطوعين، ليس من مصر فقط وإنما من دول عربية أخرى، لكن المشير «عامر» كان يضغط، كما فهمت، لدخول مصر بثقلها حتى تستطيع أن تسيطر على منافذ البحر الأحمر من باب المندب فى الجنوب حتى قناة السويس شمالا، وتغلبت وجهة نظره فى النهاية، وأجمع المجلس الرئاسى فى القاهرة على الحملة العسكرية، فبدأت ألوف أخرى فى التدفق.

وعندما تحسن الموقف العسكرى فى نهاية إبريل 1963، نصح اللواء أنور القاضى قائد القوات المصرية فى اليمن بعودة الجانب الأكبر من قواته إلى مصر خاصة أن الجيش اليمنى كان قد بدأ بناؤه، كما أن عددا من الجبهات كان قد هدأ.

وبدأت القوات تعود إلى مصر بالفعل وتقام الاحتفالات لاستقبالها، إلَّا أن الموقف سرعان ما تبدل فتورطت القوات المصرية فى وحل اليمن مرة أخرى حتى إن المراقبين الأجانب سموها «فيتنام مصر»، ويقال إن عدد القوات وصل إلى ذروته فى منتصف عام 1965 عندما بلغ 70 ألفا، بقى جانب منهم هناك حتى ما بعد انتهاء نكسة 1967. أما أنا فكنت قد عدت إلى القاهرة مع بداية 1963.

انقلاب

فى 8 فبراير 1963 دق جرس الهاتف فى بيتى وكان المتحدث الدكتور حاتم، قال: «تعلم أن انقلابا تم فى العراق.. اليوم تذهب إلى السيد سامى شرف، وتنفذ ما يقوله لك».. ذهبت إلى سامى شرف فقال إن وفدا إعلاميا مصريا سيسافر فى اليوم التالى إلى بغداد وإننى سأكون ضمن هذا الوفد مع مصور اختاره، ولكن وجود المصور معى سيكون للتعمية حتى نوحى بأن المهمة هى تغطية الأخبار.. «مهمتك الأولى هناك هى إقناع المسئولين بإذاعة إنتاج التليفزيون المصرى على شاشة بغداد.. طبعا لن تقول ذلك صراحة.. اعمل ما تراه مناسبا، وإذا احتجت إلى مساعدة اتصل بفخرى عثمان السكرتير الثالث بالسفارة»، وأردف أن الدكتور حاتم سيتابع تنفيذ المهمة، وأن الطريقة الوحيدة للاتصال به هى إملاء الرسائل فى مكتب الملحق العسكرى، حيث ترسل بالشفرة من هناك.. فى اليوم التالى تجمَّع فى حديقة مكتب معلومات الرئاسة فى منشية البكرى وفد الصحفيين المصريين، وأعطانى سامى شرف مظروفا صغيرا به رسالة توصية موجهة منه إلى فخرى عثمان السكرتير الثالث فى السفارة.

فى بغداد

عندما وصلنا بغداد يوم 10 فبراير كان إطلاق النار لا يزال مسموعا بوضوح فى بعض شوارع العاصمة العراقية، التى كانت تعج بالدبابات والمصفحات المجهزة بمدافع الماكينة، وخاصة فى منطقة ميدان «باب المعظم»، حيث توجد وزارة الدفاع التى كانت معقل عبدالكريم قاسم، وكان قاسم قد أعدم مع ابن خالته رئيس محكمة الثورة العقيد عباس

المهداوى فى استوديو التليفزيون الذى نقلا إليه تحت الحراسة فى اليوم السابق لوصولنا.

وضعنا حقائبنا فى غرفتنا بالفندق، وانطلقت مع زميلى المصور رشاد القوصى إلى وزارة الدفاع.. كانت بقايا المعارك لا تزال تدور هناك، وكانت هناك سيارة «جيب» تربط خلفها ضابطا من الموالين لقاسم وتسحله على الأرض.. وعندما اقتربنا من وزارة الدفاع دخلنا مرمى النيران المتبادلة التى كادت تفتك بنا، وكانت النيران لا تزال مشتعلة فى جانب من الوزارة بدا كما لو كان قد حطم تماما، وأمامه مظاهرة محدودة لمجموعة من البعثيين تهتف بسقوط الشيوعية.

كانت الأوضاع حينئذ قد بدأت تستتب، وبدأت القيادات الجديدة البعثية والقومية تتولى إدارة مؤسسات الدولة.. كانت الإذاعة والتليفزيون من نصيب عبدالستار الدورى، وهو قيادى بارز فى فرع حزب البعث فى بغداد، وعندما تولى مسئوليته الجديدة لم يكن قد دخل التليفزيون من قبل.. عندما ذهبت إليه استرحت له ويبدو أنه استراح لى كذلك، وتوطدت العلاقة بيننا بسرعة حتى إننى خاطرت وصارحته فى اللقاء الثالث بيننا بمهمتى، فقال بحماس ظاهر: «عز المنى.. أنا فى الانتظار.«

هكذا ذهبت إلى مكتب الملحق العسكرى لأبلغ الدكتور «حاتم» بالنبأ، وأطلب منه إرسال ما يريد من برامج.. كان الملحق العسكرى المصرى فى بغداد فى ذلك الحين هو العقيد عبدالمجيد فريد الذى أصبح فيما بعد سكرتيرا عاما لرئاسة الجمهورية فى القاهرة، أما مساعده فكان المقدم السورى طلعت صدقى الذى كنت قد التقيته قبل سنوات فى دمشق، ولكن كليهما كان قد طرد من العراق.. كانت العلاقات المصرية العراقية قد توترت أيام حكم قاسم الشيوعى إلى حد بعيد، وكانت سفارتنا فى بغداد مقصدا معتادا للمظاهرات المعادية، وهكذا فعندما تولى عبدالسلام عارف الرئاسة تنفست القاهرة الصعداء على الرغم من أن حزب البعث العربى الاشتراكى هو الذى كان له الدور الأبرز فى الانقلاب، ولم تكن أيام عارف كلها مريحة بالنسبة إلى مصر؛ إذ نجح البعثيون فى السيطرة عليه

وزحزحته عن القوى القومية الأخرى حتى مقتله فى 1966، إثر سقوط طائرته الهليكوبتر فى حادث غامض..

فى اليوم التالى اتصل بى مكتب الملحق العسكرى لإبلاغى أن رد الدكتور حاتم وصل، ولما اطلعت عليه كدت أقفز من السعادة لأن المواد ستصل بعد 24 ساعة من القاهرة فى طائرة مصر للطيران.. أبلغت الدورى الذى لم يكن أقل ابتهاجا، وأصدر أوامره بإعداد قاعة عرض خاصة حتى أعود من المطار لنشاهد معا ما أرسلته القاهرة، وعندما عدت بالصندوق الذى يحتوى على الشرائط أطفئت أنوار القاعة، وجلست إلى جانب الدورى وحدنا.. كانت المفاجأة عندما بدأ العرض.. كان أول ما شاهدناه أغنية «ناصر كلنا بنحبك».. ياللغباء، دعاية سافرة على هذا النحو، هكذا قلت لنفسى، ولكن المصائب تتالت بعد أن شاهدنا ثلاثة شرائط أخرى كانت كلها أفلاما تسجيلية عن عبدالناصر وثورته.. اعتذرت للدورى.. قلت إن خطأ ما لا بد أنه حدث، وإننى سأبلغ القاهرة على الفور، وكنت واثقا من أن الأمر سوف يتم تصحيحه على نحو السرعة.

هكذا عدت ثانية إلى مكتب الملحق العسكرى حيث كتبت رسالة سريعة إلى الدكتور حاتم بأسلوب تلغرافى: «وصل الطرد.. الشرائط التى شاهدتها مع مدير الإذاعة والتليفزيون كلها تتحدث عن سيادة الرئيس وعن الثورة بشكل مباشر وربما مستفز للمسئولين البعثيين هنا.. أرجو تفضلكم بإرسال مواد أخرى تحمل الرسالة الإعلامية التى نريد إبلاغها تدريجيا..
احترامى».. لم يأخذ الدكتور حاتم وقتا طويلا فى الرد على رسالتى؛ إذ جاءت لى منه رسالة فى المساء، وعندما استدعانى مكتب الملحق العسكرى لاستلامها وجدتها مختصرة تماما وواضحة جدا: «يحضر حمدى قنديل إلى القاهرة، ويحل محله ممدوح زاهر (كبير مندوبى الأخبار)، ولا ينتظر حمدى وصول ممدوح»، وهكذا عدت إلى مصر فى اليوم التالى.

الحجر الصحى

فى مطار القاهرة انتظرتنى مفاجأة أخرى، أننى لم أحقن بلقاح ما كان علىّ أن أتناوله قبل سفرى من بغداد، أو هكذا أبلغنى الرجل الذى قادنى إلى الحجر الصحى.. اتصلت بمكتب الدكتور حاتم لأحيطهم بالمشكلة لكن أحدا لم يتحرك.. حاولت الاتصال بالدكتور النبوى المهندس الذى كان وزيرا للصحة، ولكن منزله أبلغنى أنه يحضر حفل أم كلثوم، وكان اليوم بالفعل يوم خميس؛ فاضطررت إلى الاستسلام للحجر الصحى حتى انتهى بعد أيام، وعندما ذهبت إلى الدكتور حاتم فى مكتبه انتظرت ساعات وساعات يوما بعد آخر دون أن يأذن بالمقابلة على غير ما اعتدت.

بعد نحو أسبوع استقبلنى الوزير، وما إن دخلت مكتبه حتى قال: «يعنى تفضحنا كده عند الرئاسة».. سألت: «فضيحة إيه يافندم.. رئاسة إيه يا فندم؟».. قال: «ألا تعرف أن البرقيات من مكتب أى ملحق عسكرى تمر بالرئاسة أولا، وهى التى توزعها بعد ذلك على أصحابها؟».. قلت إننى لم أعرف ذلك من قبل، وتعليمات السيد سامى شرف تقضى بأن أوجه رسائلى من مكتب الملحق.. «طيب اتفضل دلوقتى».. عاد الدكتور حاتم بعد أيام فأبلغ إدارة الأخبار بالسماح لى بقراءة النشرات بعد أن عوقبت على فضح الإعلام لدى الرئاسة.. كانت هذه حكاية زيارتى الأولى إلى العراق.

كان التليفزيون المغربى (2 M)قد أوفد فريق تصوير لتغطية أخبار مهرجان القاهرة السينمائى الدولى عام 1991 وإجراء مقابلات مع عدد من الفنانين، كانت نجلاء فتحى من بينهم، ولما لم تكن مشاركة فى المهرجان فقد طلب منى المخرج أن أسعى لترتيب موعد معها.

عندما حدثتها عن المقابلة وافقت ولكنها اعتذرت عن عدم إجرائها فى المنزل لأنها كانت تعدل فى ديكوراته، فاقترحت أن يجرى الحديث فى حديقة الفندق الذى يقام به المهرجان، ولكنها خرجت باقتراح آخر: «ولماذا لا يكون ذلك فى بيت شقيقتى فى الدقى، وهو قريب منكم؟.«

فى المساء جاءنى اتصال تليفونى من اللواء محمد السكرى وكيل اتحاد التنس، وكنت قد قابلته منذ سنوات فى نادى اليخت، قال: «ألا تعرف أن نجلاء فتحى شقيقة زوجتى؟»، قلت إنها أول مرة أعرف فيها ذلك، فقال إنها أبلغته بمكالمتى، وإنه يدعونى لزيارته مع فريق التصوير فى الغد لنتناول فنجان شاى قبل أن أعود للمغرب، وكان يظن أننى مقيم هناك، اعتذرت لارتباطات أخرى، فدعانى للعشاء فى الأسبوع التالى.

ذهبت إلى العشاء وأنا فى غاية القلق خشية ألَّا أجد موضوعا مناسبا أحدثها فيه عندما نلتقى، لكننا عندما التقينا ذهب كل هذا القلق تماما.

أول ما لاحظته بعد أن جلست أن الكل يناديها بـ«زهرة»، وعندما سألت قالت إن اسمها الحقيقى هو فاطمة الزهراء، دهشت أنها بسيطة للغاية فى ملبسها وتلقائية فى حديثها، وعندما علمت منها أنها تعرف باريس جيدا انطلقنا نتحدث عن ذكرياتنا فيها، كما لو كنا قد زرنا كل شبر فيها معا. ما فاجأنى حقا هو أنها لا تمت بصلة للصورة النمطية للنجمة السينمائية التى كانت فى ذهنى.

وعندما أوشكت أن أغادر وعدتها أن أتصل بها حتى «أحدثها عن انطباعى عن الفيلم بعد أن أشاهده»، ولكننى كنت قد قررت أن ألقاها مرة ثانية، وذهبت وأنا على يقين أنها ليست شاطرة فقط، ولكنها ذكية ومرحة

وذات شخصية قوية، وأنها ستضفى على حياتى بهجة لم أعرفها منذ وصلت إلى القاهرة، وهكذا تكرر اللقاء عدة مرات حتى جاء الصيف فذهبت مع ابنتها الوحيدة ياسمين لتقضى أسبوعين فى العجمى، وعندما علمت أنها صديقة لزوجة صديقى رجل الأعمال ممدوح مرسى الذى يقضى شهور الصيف فى فيللته هناك، حجزت أنا الآخر غرفة فى فندق بالإسكندرية، وواظبنا على اللقاء كل يوم.

اكتشفت وقتها أن بيننا الكثير مما يجمعنا، كانت تصحو مبكرا، وكانت تحب السفر وتجيد لعب الطاولة، كما أنها كانت تنفر من حفلات وسهرات المجتمع، وكانت تتابع جيدا الشأن العام وتميل إلى نهج اليسار على الرغم من أن عبدالناصر أمَّم أرض والدها حسين بك فتحى الذى كان من أعيان الفيوم.

كانت المرأة التى تطلعت للارتباط بها، وعندما عدنا إلى القاهرة فى سيارتى كانت معنا ياسمين، وكانت فى نحو الرابعة عشرة من عمرها، ولم أجد صعوبة فى التفاهم معها، بل إنها راحت تداعبنى ونحن فى الطريق.

كان قد مضى على عودتنا من الإسكندرية نحو أسبوعين عندما كلمتنى فى التليفون فى الصباح، كنت قد اعتدت هذه المكالمة منها بعد أن تصحب ياسمين بنفسها إلى المدرسة، سألت: «عملتى لفة فى النادى النهارده؟»، قالت: «كتير، أكتر من اللازم»، فلما سألت عن السبب قالت: «لأنى كنت بافكر فى موضوع مهم»، خير؟ فاجأتنى: «أنا هتجوزك النهارده!» أخذت أردد دون أن أدرى: «عظيم عظيم»، فباغتتنى بسؤال عملى: «إنت مش معاك بطاقة؟»، قلت إننى لم أستخرج بطاقة شخصية بعد، فطلبت منى أن أذهب إلى منزلها فى الخامسة بعد الظهر ومعى جواز السفر، «موافق ولَّا حنرجع فى كلامنا؟»، قلت: «موافق أكيد، ولكننا لابد أن نلتقى أولا لنبحث الترتيبات.«

وأنا فى الطريق إليها أخذت أقلب فى الأمر، لا فى أمر الزواج ولكن فى أسلوب عرضه، وزاد إعجابى بها أنها على هذا القدر من الصراحة، إذا كان المألوف هو أن يبادر الرجل بطلب الزواج، فلماذا لا يكون هذا من

حق المرأة أيضا؟ ولكنها عندما فتحت لى الباب، كان سؤالى الأول: «ولكن افترضى أننى ماطلت عندما عرضتِ علىّ الزواج، ألم تفكرى ماذا سيكون عليه حالك عندئذ؟»، قالت: «فكرت جيدا.. أنت تعلم أننا لسنا فى قصة غرام مشتعل، نحن بالغان ولنا تجارب زواج من قبل، وما بيننا هو إعجاب شديد، ولن أحزن كثيرا عليك إذا تنصلت لأنك لن تستأهل ثقتى فى رجاحة عقلك ولن تكون الزوج المناسب لى.«

رئيس التحرير 1998 – 2003

كنا فى فبراير 1998 عندما قال لى جمال بدوى إن صفوت الشريف طلب منه أن يسألنى إذا ما كنت على استعداد لأقدم برنامجا فى التليفزيون المصرى، وعندما وافقت رتب جمال الموعد وذهبت إلى الوزير فى مكتبه.

حدثنى عن الكتيبة الإعلامية، وعن الريادة التى يجب أن تحتفظ بها مصر، وعن إيمان النظام بحرية الإعلام، وعن أن انطلاق هذه الحريات يعتمد على أن توضع فى أيدٍ حكيمة، قال: «إحنا مش حنلاقى حد زيك فاهم الأمور كويس»، توقفت قليلا عند هذه العبارة، لكننى مع ذلك شكرته، وقلت إن أساس العلاقة يجب أن يكون الوضوح، وإن لى متطلبات بدونها من الصعب أن أعمل، أنا لا أضع شروطا، ولكنى أرى أن نجاح البرنامج يعتمد على ثلاث ركائز؛ أولاها توافر سقف حرية عالٍ، وثانيها المرونة الإدارية بحيث لا أقع فى حبائل روتين ماسبيرو، أما الثالثة فهى قبول الإعلانات فى البرنامج.

قال صفوت الشريف: «الأولى والثانية فهمناها، بل وقبلناها أيضا، لكنى أود أن أعرف لماذا الإعلان؟»، قلت: «أولا لأن هذا هو المستقبل.. فى المستقبل لن تُستثنى البرامج الإخبارية من الإعلانات، وسوف تنافس الأخبار برامج المنوعات، وما أفكر فيه أيضا هو أن تخصص نسبة من الإعلانات للإنفاق على البرنامج نفسه خاصة من أجل استضافة متحدثين من الخارج أو من أجل سفرى لتغطية بعض الأحداث.«

قال: «سوف نرصد للبرنامج الميزانية المناسبة بإعلان أو بدونه، لكننى لا أمانع فى قبول الإعلانات على أى حال»، أضفت: «ولكن اسمح لى يا صفوت بك أن تكون لى كلمة فى الموافقة على هذه الإعلانات، نحن لن نسمح مثلا بقبول إعلانات عن ملابس داخلية أو عن فيديو كليب جديد وسط حديث عن القضايا الجادة، ولعلنا نبدأ بالبحث عن رعاة بين شركات الموبايل مثلا.«

انساب الحديث فى مودة بادية، وبدأنا ندخل فى التفاصيل، فسألنى عن الاسم الذى أقترحه للبرنامج، قلت إن لدىّ ثلاثة اقتراحات، ولكنى أفضل بينها اسم «رئيس التحرير».. بصراحة، أفضله لأن معناه أننى أنا المسئول عما أقول، أى أننى، بعد إذنك، لا أتقبل تعليمات من أحد، ضحك صفوت الشريف، وقال: «مفيش مانع أبدا»، ثم سألنى: متى أكون على استعداد لتقديم الحلقة الأولى؟، قلت: «فور انتهاء الترتيبات اللوجيستية، الديكور وما شابه»، قال: «ربنا يوفقك، دعنا إذن نبدأ بحلقة كل شهر»، فقلت إن المرة فى الشهر ليست وصفة للنجاح ولكننى لا أمانع، فلنجعلها فترة جس نبض يتعرف فيها كل جانب إلى الآخر ويطمئن له، وبعدها يجب أن يكون البرنامج أسبوعيا.

قال الوزير: «إذن فلا يتبقى لنا الآن إلَّا الحديث عن الأجر، وأنت تعلم طبعا أن أجورنا لا تتوازى مع ما تدفعه القنوات الخاصة، لكنى أعدك بأنك ستتقاضى أعلى أجر بمقدورنا أن نقدمه لك، وعلى أى حال فسوف أترك هذه التفصيلات لعبدالرحمن حافظ (رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون) ليبحثها معك.«

قلت إن ذلك لا يمثل مشكلة، وعلى الرغم من أننى لا أعرف لائحة الأجور هنا ولا ما الذى سأتقاضاه فإنه مهما كان الأجر فسيظل رمزيا، وما أطلبه أن تخصص لى نسبة 10% مما ستدفعه الجهات الراعية للبرنامج.

بدأت فى إعداد البرنامج، كنت قد قررت أن يكون «رئيس التحرير» عرضا بسيطا وعميقا، ساخنا وساخرا لقضايا البلد، واخترت للحلقة الأولى موضوعا حساسا لأختبر بذلك قيود الرقابة هو حرب الخليج، واستضفت

للمناقشة المشير عبدالغنى الجمسى والدكتور مراد غالب وزير الخارجية الأسبق والمفكر المصرى اليسارى محمد سيد أحمد، كما استضفت أيضا المفكر الكويتى الدكتور أحمد الربعى لأتبين مدى كفاءة التليفزيون فى إجراء ترتيبات سفره وفى دفع المكافأة المناسبة، وتم ذلك كله على خير وجه.

لم يصدق البعض أن يخرج مثل هذا الكلام من التليفزيون الرسمى، فأخذوا يعزون ذلك إلى أن قائله مسنود، أو لأن هناك اتفاقا تحت الطاولة بينى وبين أهل الحكم، أو لأن وزارة الإعلام كانت تبحث عن واجهة توحى بأن الدولة تبنت سياسة منفتحة تؤمن بالديمقراطية.

لما اقترب موعد الحلقة الثانية من «رئيس التحرير» دعوت المفكر الفلسطينى الدكتور عزمى بشارة للحضور، فى حين توجهت أنا إلى بيروت لتسجيل أول حديث فى التليفزيون المصرى مع أمين عام حزب الله حسن نصر الله للحلقة ذاتها، وكنت أنوى تخصيص الفقرة الثالثة فى الحلقة لمناقشة قضية الصحافة الصفراء، ودعوت للمشاركة فيها الدكتور مصطفى كمال حلمى رئيس مجلس الشورى ومكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين وكذلك صفوت الشريف، لكنه اعتذر بدعوى أنه سيظهر فى برنامج تليفزيونى آخر.

استمر التجهيز للحلقة، وسارت الأمور دون متاعب تذكر، وفى اليوم المقرر للتسجيل، وهو يوم البث نفسه، فوجئت بالمخرج يتصل بى ليقول إنه ذهب إلى المسرح فى الصباح فوجده محجوزا لتسجيل برنامج «لو بطلنا نحلم»، كما أن إحدى المدارس الخاصة استأجرته لتقيم فيه حفلا، حاولت فض الاشتباك بكل ما أمكننى من اتصالات إلَّا أن ذلك كان مستحيلا، لم أنجح سوى فى ترتيب تسجيل عزمى بشارة فى الفندق الذى كان يقيم فيه.

أحد عشر موظفا

الطريف أننى عندما ذهبت إلى الفندق وجدت آلتى التصوير وإلى جانبهما 11 من موظفى التليفزيون، قلت: «يا إخواننا، أى محطة خاصة تجرى

مثل هذا التسجيل يكفيها ثلاثة أشخاص على الأكثر»، وبدأت أسأل كلا منهم عن عمله، مصور، مهندس صوت، فنى كهربا، عامل لنقل المعدات، وهكذا إلى أن وصلت إلى الاثنين الأخيرين، قال أولهما إنه جاء من الشئون المالية ليسدد مكافأة الضيف، أما الأخير فالتفت لى، قائلا: «أصل الضيف هياخد مكافأته بالعملة الصعبة»، فهمت يومها لماذا كان يوجد 35 ألف موظف فى ماسبيرو عندئذ.

فات موعد البرنامج دون أن يذاع فلم أجد بدا، كى أحفظ ماء وجه التليفزيون، من الاتصال بعزمى بشارة، وكذلك بمسئول الإعلام فى حزب الله للاعتذار عن عدم بث الحلقة، متعللا بأن عواصف الخماسين دكت مخزن الديكور، وأن النار اشتعلت فى جانب من الاستوديو، وذهبت إلى رئيس الاتحاد ثائرا أحاول أن أبين له أن ما حدث يعتبر فضيحة للتليفزيون، وأطلب وضع قواعد واضحة حتى لا يتكرر ذلك مرة أخرى، وأسأل عن الموعد الجديد المحدد للحلقة، فوعدنى بحسم ذلك كله على الفور وإبلاغى بالنتيجة، لكننى ظللت أكثر من شهر فى الانتظار، وكما هو متوقع انهالت الصحف هجوما على التليفزيون لأنه لم يعلن للمشاهدين أن البرنامج سيغيب، ولم يوضح سبب غيابه.

وعندما جاء الاحتفال بعيد تحرير سيناء (25 أبريل) كان قد مضى على بث الحلقة الأولى 50 يوما، وكانت القوات المسلحة تحتفل بالعيد فى مسرح الجلاء، وكنت قد دعيت إلى الاحتفال فى قاعة كبار الزوار فوجئت بصفوت الشريف أمامى يقف إلى جانب فاروق حسنى وزكريا عزمى وعدد آخر من الوزراء، بادرنى: «إنت زعلان ليه يا أستاذ حمدى؟»، فقلت: «سعادتك بتسألنى بعد شهرين إنت زعلان ليه؟».. قال: «أعمل إيه يعنى إذا كنت طالب 10 آلاف جنيه فى الحلقة؟»، فوجدتها فرصة لأتبرأ من هذه الشائعة أمام كبار القوم جميعا: «هذا غير صحيح بالمرة، وأنا لم أطلب هذا المبلغ ولم أحدد أى مبلغ على الإطلاق»، قال: «أصلهم قالوا لى كده».. سألت: «من هم سيادة الوزير؟»، وطلبت الاستشهاد برئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون الذى كان موجودا فى الحفل، قال الوزير: «بعدين»، ولكنى صممت على استدعائه، فجاء عبدالرحمن حافظ وحاول إمساك

العصا من المنتصف، لا هو قادر على إغضاب الوزير ولا على إنكار الحقيقة، قلت: «يكفينى هذا يا سيادة الوزير.. أستأذن».. ومضيت.. ونشرت صحيفة الوفد نص المناقشة التى دارت فى الاحتفال بعدها بأيام.

على الرغم من تدخل الوزير لم تبث الحلقة الثانية سوى فى يوم 27 مايو، ومع أنها غابت أسابيع فإنها أذيعت فجأة ودون تنويه مسبق.

مع مبارك

بعد ذلك بأيام جاء احتفال عيد الإعلاميين الذى يقام سنويا فى مدينة الإنتاج الإعلامى بمناسبة ذكرى مولد الإذاعة الحكومية المصرية عام 1934، ويحضره الرئيس مبارك فى العادة.

كانت هذه أول مرة ألقاه فيها منذ أكثر من عشر سنوات، أخذ مبارك يتجول بيننا ونحن نتناول المرطبات، وعندما رآنى اقترب منى وأمسك بيدى، وهو يصطحبنى تجاه البحيرة الصناعية التى أقيم بجوارها الحفل، وعندما وصلنا إلى هناك توقف والتفت لى يسأل: «هو صفوت الشريف عامل فيك إيه بالظبط؟».. قلت: «مفيش حاجة ياريس، ده مجرد سوء تفاهم.«

كنت أعلم غرام مبارك بالمقالب، وخاصة مع مساعديه، والضحك على الجميع فى النهاية، وكانت تساليه المفضلة عندما يوقع بين صفوت الشريف وفاروق حسنى معروفة لى بتفاصيلها، وهكذا كنت حذرا ألَّا أقع فى الفخ، ومع ذلك فقد استدرجنى لأروى له حكاية الاحتفال بعيد سيناء التى كان قد سمع بها، كما قال، عندما كان يشهد الاحتفال، استمع باهتمام ومودة، ثم قال: «لو فيه مشاكل تانى كلمنى»، ولكننى لم أفعل.

الريس أم سيادة الريس؟

فى مرة أخرى نبهنى صفوت الشريف إلى أننى الوحيد على شاشة التليفزيون الذى يسمى مبارك «الريس»، هكذا «حاف» بدلا من «سيادة الريس»، قلت لأن برنامجى قائم على أننى أتحدث مع المشاهدين كما لو كنت جالسا معهم فى بيوتهم، والناس فى بيوتهم عندما يتحدثون إلى

بعضهم البعض ويأتون على ذكر الرئيس فهم يلقبونه بالريس وليس سيادة الريس، قال الوزير: «أنت تجادل والسلام»، فقلت: «لا يا صفوت بك.. يعنى سيادتك مثلا وأنت تتكلم فى البيت مع الهانم عن الرئيس، هل تقول الريس أم تقول سيادة الريس؟».. ضحك الوزير ضحكة مجلجلة، وقال: «طبعا بأقول سيادة الريس.. دى عايزه كلام.«

من أبرز أحاديث البرنامج، حديث أجريته مع المطرب الشعبى شعبان عبدالرحيم، وكان ذلك بعد أغنيته الشهيرة «باحب عمرو موسى وباكره إسرائيل»، التى وصلت أصداؤها إلى قناة CNN ، وقد ترددت قليلا فى استضافته، ولكننى عندما علمت أن شرائطه وزعت 6 ملايين نسخة، وهو رقم غير مسبوق فى توزيع الشرائط الصوتية، اتصلت به على الفور.

وعندما جاءنا إلى الاستوديو كنت حريصا على أن يظهر فى أفضل صورة ممكنة حتى لا يظن أحد أننا أتينا به لنسخر منه ومن ملابسه.

وما أزال أعتقد أن استضافة شعبان عبدالرحيم فى «رئيس التحرير» كان قرارا صائبا، فقد كان ظهور أغنيته مهما اختلفت الآراء حولها حدثا لا يمكن تجاهله.

مقص الرقيب

كانت إسرائيل هدفا دائما لطلقات البرنامج، وفى إحدى المرات كنت قد وصفت شيمون بيريز بالنازى، وصمم الرقيب على حذف العبارة، وكنت أعرف سلفا أننى لو شكوت لصفوت الشريف فى هذه الحالة بالذات فلن أحصل منه على شىء؛ ذلك لأنه كان قد نبهنى من قبل أن «مبارك» منزعج للغاية لأنى وصفت الإسرائيليين بالسفلة، وكنت قد خففت من تكرار هذا الوصف، لكننى لم أتوقف عنه على الرغم من ذلك.

وصل رواج البرنامج إلى الذروة عندما بدأ بثه أسبوعيا فى 2001، وقد بدا ذلك جليا فى حجم الإعلانات التى بلغت نحو 20 دقيقة فى الحلقة، وارتفع سعرها 150.%

حصار عرفات

كانت حلقة أول أبريل 2002 هى الحلقة التى أصابتنى بأكبر قدر من القلق والتوتر، كان ياسر عرفات محاصرا وقتها فى المقاطعة؛ لذلك لم يستطع حضور مؤتمر القمة فى بيروت خشية أن يمنعه الإسرائيليون من العودة، فشارك فى نقاشات المؤتمر من خلال دائرة فيديو مغلقة، وكان هذا أمرا مهينا للغاية، للرؤساء والملوك لا لعرفات نفسه، وإثر انعقاد القمة قامت إسرائيل بعملية الاجتياح الكبرى للأراضى الفلسطينية.

استفزت هذه الأحداث الجماهير العربية، فوجدت أن الموقف لا يحتمل الكلام، وقررت اختصار البرنامج قدر الإمكان وإلغاء ندوته المعتادة، وحذف الشكاوى وكذلك الأقوال المأثورة، واختصار التعليق فيما يشبه رسالة موجهة إلى القادة العرب وإلى الجماهير فى آن واحد.. وعندما سجلت الرسالة بلغ طولها نحو 14 دقيقة، فأبلغت صفوت الشريف بذلك سلفا وطلبت منه أن يذاع البرنامج على هذا النحو، لكنه قال إنه لا يفضل ذلك، وأرجأ اتخاذ القرار إلى أن يطَّلع محمد الوكيل رئيس قطاع الأخبار على التسجيل.

لا أدرى ما الذى حدث بعد ذلك، ولكنه عندما أذيع البرنامج لم يستغرق أكثر من ثمانى دقائق، وكان المونتاج الذى أجرى فيه غشيما إلى حد بالغ، وكانت الحلقة مثل جمر متقد، وخاصة عندما رددت أكثر من مرة عبارة: «رفعت الأقلام وطويت الصحف.»

فى سبتمبر عام 1997 كنت أقدم برنامجا فى «راديو وتليفزيون العرب « ART، عندما ذهبت إلى القذافى فى سرت لأجرى معه حديثا بمناسبة الاحتفال بذكرى ثورة الفاتح.

بدأ القذافى بالحديث عن تاريخ العالم والأجناس التى سكنته ومؤامرات الاستعمار التى لا تنتهى والتحضير للثورة الليبية، ومع ذلك بدا حديثه متماسكا فى بعض الأحيان بل شائقا إلى حد ما فى أحيان أخرى.

عندما كادت الساعة المخصصة للحديث تنتهى تأهبت للختام، فإذا بيد تمتد من ورائى يقدم لى صاحبها ورقة صغيرة كتب عليها «تم مد الإرسال ساعة أخرى»، لم أتبين مَن صاحب اليد، ولكن المفاجئ أن طرف كم البدلة أكد أنها بدلة عسكرية.

- كان يستنكر اقتصار مباريات الكرة على 11 لاعبا فقط.. ويعتبر «الملاكمة» سلوكًا همجيًا.. ودعا لإلغاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية

تحدث القذافى عن مباريات كرة القدم واستنكر اقتصارها على 11 لاعبا فقط من كل فريق، وعندما سألته عن الحل المثالى من وجهة نظره قال: إنه فى الجماهيرية الشعبية لابد أن يشارك الشعب كله، ولا يقتصر دوره على الفرجة السلبية، وإنما أن ينزل الجميع إلى أرض الملعب، ولم يكن حديثه عن الملاكمة مختلفا كثيرا؛ إذ كان يعتبرها دلالة على أن البشرية لم تتخلص بعد من سلوكها الهمجى، وكان يرى أن الملاكمين والمتفرجين هم سلالة البشر الذين لم يتحضروا بعد.

سألته أيضا لماذا يطالب بإلغاء رياض الأطفال، فقال: «أنا لست ضدها وحدها، أنا أنادى أيضا بإلغاء المدارس الابتدائية، رياض الأطفال والمدارس الابتدائية مثل تسمين الدجاج، لا أدرى لماذا يرمى الناس أولادهم على هذا النحو، لماذا ينجبونهم ما داموا لا يستطيعون تربيتهم؟

التعليم الابتدائى تربية، والتربية يجب أن يكون مكانها البيت، أما رياض الأطفال فيقتصر دخولها على اليتامى.«

•القذافى سألنى فى 2005: لماذا تصر على مهاجمة مبارك.. وما اعتراضك على نجله جمال؟.. وحاورته للمرة الاولى فأبلغنى الشيخ صالح كامل أن «الجماعة زعلانين» فى الرياض

بعد اللقاء التقيت الشيخ صالح كامل فى باريس وكان وجهه ينطق بما فى صدره، أوجز الشيخ صالح الموقف فى كلمات صارت فيما بعد مثلا يتردد كلما مرت برامجى بالمآزق التى ألفتها: «الجماعة زعلانين»، وأخبرنى أنه تلقى مكالمة غاضبة من الرياض خلاصتها أننى كثيرا ما تركت القذافى يهذى دون أن أجادله.

القذافى مدافعًا عن مبارك

لم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى التقيت فيها القذافى فى عمل تليفزيونى؛ إذ كانت المرة الثانية فى إبريل 2005 عندما كنت أقدم برنامجى «قلم رصاص» من دبى، وكان الحديث فى مقره بطرابلس فى «باب العزيزية.«

عندما دخلت عليه مكتبه بادرنى بالسؤال: «لماذا إصرارك على الهجوم على الرئيس مبارك؟»، قلت: «يا سيادة العقيد أنا لا أهاجم، أنا أنتقد»، قال: «ولكن ما اعتراضك بالذات على جمال مبارك؟»، أجبت: «ليس لى عليه أى اعتراض كشخص»، ثم أضفت: «لكن الجمهوريات لا تورث يا سيدى.«

عَبَرَ القذافى إجابتى وقال: «عندما آتى إلى القاهرة فى المرة القادمة سأصطحبك معى إلى الرئيس مبارك»، فضلت أن أتفادى النقاش فأجبت بأنه ليس بينى وبين الرئيس خلاف يستدعى الوساطة، وانتهى الحديث عند هذا الحد.

•وقعت عقد «قلم رصاص» مع «الليبية» باعتبارها «ذات توجه حر».. وبعد الحلقة الخامسة جاءنى أحد المسئولين وهو يهذى: «القائد.. القائد«

تأميم الليبية

فى مايو سنة 2009، كنت جالسا فى سكنى فى لندن الذى يطل على حدائق كنسنجتون، امتداد «هايد بارك»، أتأهب لإجازة نهاية الأسبوع بعد أن أنهيت تسجيل الحلقة الخامسة من برنامجى «قلم رصاص» فى قناة الليبية، عندما دخل عليَّ «توفيق» وهو يهذى بصوت عالٍ: «القائد القائد.

توفيق رجل ليبى طيب فى المجمل، يعمل فى مجال المقاولات على ما أظن، وهو صديق مقرب من عبدالسلام مشرى، رئيس مجلس إدارة مؤسسة «الغد» المسئولة عن القناة، انتدبه ليكون مسئولا إداريا يذلل العقبات أمام برنامجى فى أسابيع انطلاقته الأولى، وقد عرفته متزنا رزينا؛ الأمر الذى أثار دهشتى لما رأيته يصيح على هذا النحو الهستيرى.

»القائد» لأى ليبى لا أحد غير القذافى، والقذافى كما كنت أعلم لا شأن له بنا أو بالقناة، القناة تصدر عن مؤسسة مستقلة عن الدولة هى مؤسسة الغد.

هذا ما قاله لى مشرى عندما التقينا فى دبى لأول مرة، كنا فى شهر يناير، وكان الرجل قد جاء ليتفاوض مع تليفزيون دبى على شراء بعض المسلسلات والبرامج من بينها برنامجى «قلم رصاص»، وعندما علم أن البرنامج أوقف اتصل بى فالتقينا وعرض عليَّ تقديم البرنامج فى قناته، وشدد يومها على أن القناة ليست تابعة لإعلام الدولة، وأن «مؤسسة الغد» أطلقتها بتمويل من بعض المنظمات الأهلية، فطلبت منه أن يمهلنى حتى نلتقى فى طرابلس.

كانت الدنيا من حولى وأنا ذاهب إلى ليبيا قد أظلمت، ليس فيها طاقة نور واحدة، أخذت أحاسب نفسى حسابا عسيرا وأتدبر فيما إذا كان الخطأ خطئى أم خطأ غيرى، لكن المحصلة فى النهاية كانت جلية: لم تعد هناك بلاد تتحمل مشروعى، ولا هناك محطات ذات وزن يمكنها أن تطيق ما أقول، لكننى لم أستسلم.

جلست مع مشرى رئيس مؤسسة «الغد» التى تشرف على قناة «الليبية» ساعات فى طرابلس نبحث مشروع العقد الذى كان قد أعده، كان كل ما يهمنى بالدرجة الأولى قدر الحرية المتاح، وانتهينا فى ذلك إلى أن ينص العقد على أن البرنامج «ذو توجه حر»، وهو على ما أظن نص فريد من نوعه فى مثل هذه العقود وإن كانت النصوص لا تضمن الكثير فى النهاية.

طال النقاش فيما بعد حول مكان تصوير البرنامج، وانتهينا أخيرا إلى أن البرنامج سيصور فى لندن؛ عاصمة الصحافة العربية المهاجرة.

عندما أوشكت على السفر إلى لندن استضافتنى منى الشاذلى فى برنامجها «العاشرة مساءً» الذى كان يتصدّر برامج المساء فى حلقة كاملة، وفيه فجَّرتُ المفاجأة التى لم يكن أحد قد علم بها من قبل، أن قطارى ستكون محطته القادمة فى «الليبية.«

اندهشت منى بالطبع وأخذت تمطرنى بسؤال تلو الآخر: لماذا الليبية؟ ويبدو أن إجاباتى لم تكن مقنعة تماما حتى قلت لها فى النهاية إن مثل هذا الوضع السيريالى الذى أنا فيه ليس له إلَّا حل سيريالى أيضا، وعندما بدأ البرنامج فى استقبال مكالمات المشاهدين التليفونية غمرنى أصحابها بحبهم، ونبهتنى إحدى المتصلات إلى اختيار مسكن فى لندن بلا شرفات (إشارة إلى حوادث مقتل عدد من الشخصيات المصرية البارزة من شرفات مساكنهم فى لندن .

بعد ذلك سألت منى: «ولماذا لا تعود إلى بيتك؛ إلى مصر؟»، وكانت تعرف الإجابة بالطبع، قلت: «النهاردة أنا عقد الليبية فى جيبى، وفى الغد سوف أغادر إلى لندن، ومع ذلك أقول بوضوح: لو قدم لى عرضا من التليفزيون المصرى الآن فسوف أقبله على الفور وأنسى عقد الليبية، لكننى على يقين أن هذا لن يحدث، لا توجد فى مصر قناة تريد برنامجى، أعمل إيه؟ أنشر إعلانا فى الجرايد أقول فيه إنى أبحث عن وظيفة؟.«

صمتت منى كما لم تصمت فى برنامجها من قبل، وسالت من عيونها دمعة غالبتها، تحدثت عنها الصحف كثيرا فيما بعد.

●فى الطريق من لندن إلى القاهرة شعرت أنى طريدٌ بلا رجعة بعدما ضاق الإعلام المصرى ببرنامجى

كان الألم يعتصرنى وأنا ذاهب إلى المطار، وكأننى طريد بغير رجعة، كُتبت عليَّ الهجرة مرة أخرى، والأنكى هذه المرة أننى لم أكن أعرف إلى أى عالم أنا ذاهب، كيف هم هؤلاء القوم الذين سأتعامل معهم، وما بالضبط نظم العمل فى تلك القناة التى ستأوى برنامجي؟

ما عرفته أن قناة الليبية كانت فى منطقة نفوذ «مؤسسة القذافى العالمية للجمعيات الخيرية» التى شكلها القائد ليعمل تحت مظلتها الوريث سيف الإسلام، وكان قد تنامى دوره داخل ليبيا، وعندما بدأ الحصار أصبح وجهها المفضل فى الغرب، خاصة بعد أن تأهل بشهادة دكتوراه عن الديمقراطية فى المجتمع المدنى حصل عليها من كلية الاقتصاد فى جامعة لندن بعد أن قدم مليونا ونصف المليون جنيه إسترلينى منحة للجامعة.

●سيف الإسلام لم يقترب من ساسة بريطانيا قدر اقترابه من «الجشع المتصابى» تونى بلير الذى كان مستشارًا لوالده

لم ألتقِ سيف الإسلام من قبل، لا قبل عملى بـ «الليبية» ولا بعده، وعلى الرغم من أنه كان كثيرا ما يتردد على لندن متنقلا على الطائرة الخاصة لمحمد رشيد الرجل الغامض المسئول عن أموال منظمة التحرير الفلسطينية، فإنه، على ما أعلم، لم يعقد اجتماعا واحدا حول الإمبراطورية الإعلامية التى كثيرا ما كان يقال إنه على وشك إطلاقها من لندن، والتى كان يفترض أن قناة «الليبية» هى فصيلها المتقدم.

كان بالغ الاهتمام بالمال وشئونه، وعلى الرغم من كل ما كان يشاع عن مهاراته وجولاته فى المحافل السياسية فإنه لم يقترب من الساسة البريطانيين قدر اقترابه من ذلك الرجل الجشع المتصابى تونى بلير الذى كان مستشارا لوالده، وهو أيضا الذى ساعده على نيل الدكتوراه على نحو ما نشرت الصحف البريطانية.

كانت الحلقة الأولى التى أذيعت يوم 26 مارس 2009 أكثر سخونة من التنويه، كان هناك مؤتمر قمة عربية على وشك الانعقاد خلال أيام، هذه المرة فى الدوحة.

وهكذا انطلقت أصول وأجول فى حديثى عن القمة وعن غيره من موضوعات الساعة، وحكيت أيضا للمشاهدين عن ظروف مصادرة برامجى السابقة، وقلت: «بعضهم كتب لى إن أحوال الحريات فى ليبيا عدمانة، قلت ده صحيح، إنما حد يقول لنا فين فى أرض العروبة ممكن الواحد يتنفس؟ الوضع سيريالى والحل لازم يكون سيريالى، وفى كل الأحوال من أول يوم قالوا لى إخوانا فى ليبيا مفيش خط أحمر، أنا ما اشتغلتش قبل كده فى محطة إلَّا واتقال لى إنه مفيش خط أحمر، وبعد كده شفت الخط الأحمر والجن الأزرق، لكن دى أول مرة يتكتب لى فى العقد إنى أقدم برنامجا ذا طبيعة حرة، وآدى إحنا، أنا وأنتم، حنشوف.«

وفى مكان آخر فى الحلقة قلت: «قلم رصاص حيفضل يدافع عن الحريات، وحيفضل ملتزم بالمبادئ القومية، وحيفضل ملتزم بمواجهة قوى الهيمنة الكبرى، حيفضل ملتزم بأن طريق السلام يجب أن تسنده المقاومة، حيفضل ملتزم بمطاردة فساد أصحاب السلطة وأصحاب الثروة، حيفضل ملتزم بمعارضة توريث الحكم فى البلاد اللى بتسمى نفسها جمهورية ولَّا ثورية، ما احناش حنتحرك بالريموت كنترول، ولا حنتغير بتبديل القناة، حنتصادر، بس كل ما نتصادر حتزودنا المصادرة قوة وإيمان.«

بعد أن سجلت الحلقة الخامسة دخل عليَّ توفيق البيت، كما ذكرت، يهذى: «القائد، القائد .

تلقى مشرى مكالمة من مكتب معمر القذافى تطلب منه إيقاف بث حلقة البرنامج التى كان مقررا إذاعتها فى المساء، فاعتذر عن عدم تنفيذ الأمر بأنه يتلقى تعليماته من سيف الإسلام، واتصل بسيف الإسلام يبلغه بما حدث فأمره بإذاعة الحلقة، وأذيعت الحلقة بالفعل فى المساء، وعندها تتالت الأحداث.

فى ساعات قليلة صدر قرار بحبس مشرى داخل مكتب القذافى ذاته فى باب العزيزية، ثم قرار آخر بإيقاف بث القناة، تلاه قرار ثالث بضمها إلى هيئة الإذاعة والتلفزيون الحكومية، وبعد منتصف الليل بقليل فوجئ العاملون فى القناة بمعمر القذافى يدخل عليهم وبصحبته على الكيلانى القذافى رئيس الهيئة، كانا وحدهما دون حراسة، وقف القذافى فى ردهة مبنى القناة الأمامية وأخذ يجول فيها جيئة وذهابا لدقائق معدودة، بعدها التفت إلى الكيلانى يسأله: «خلاص وضعت يدك على كل شيء؟»، ولما أجاب بالإيجاب غادر معمر.

أمم القذافى القناة هى وأخواتها، كان للخبر صدى كبير فى صحف مصر المعارضة وفى الصحف العربية، وأرجع معظمها سبب تأميم القناة وإلغاء البرنامج إلى الحلقة الأخيرة التى تعرضت بالنقد لموقف مصر الرسمى من المقاومة الفلسطينية، وكذلك لتحويل عضو فى حزب الله إلى النيابة بتهمة القيام بأنشطة وعمليات داخل الأراضى المصرية دون إخطار السلطات.

المصادر الصحفية كلها أجمعت على أن «مبارك» كان غاضبا غضبا شديدا وأنه كلم القذافى، مساومًا حسب البعض ومهددا حسب آخرين؛ مما أدى بالقذافى إلى تأميم القناة، الخلاصة أن «القذافى طوق أزمة مع مبارك بكبح الانتقادات الإعلامية»، كان هذا هو مانشيت جريدة «القدس العربى» يوم 28 إبريل 2009.

كنت قد زهدت الإقامة فى الخارج وكان الحنين يجذبنى إلى الوطن لأؤدى رسالتى هناك، فحزمت حقائبى عائدا إلى القاهرة؛ واتصلت بالصديق القديم محمود جبريل فى طرابلس، وهو خبير دولى بارز فى التخطيط، (بعد الثورة أصبح أول رئيس للمكتب التنفيذى للمجلس الوطنى الانتقالي).
طلبت من جبريل أن يتدخل لدى من يعنيهم الأمر حتى تصرف مستحقاتى المتأخرة، فوعدنى أن يطلب ذلك من رئيس الوزراء البغدادى المحمودى.

وبالفعل اتصل بى فى القاهرة فى اليوم التالى ولكن لا ليبشرنى بانتهاء المشكلة وإنما لينقل لى عرض المحمودى بأن أعود للعمل فى القناة نفسها تحت إدارتها الحكومية الجديدة فى طرابلس، فاعتذرت شاكرا.

تأكدت من سبب إيقاف البرنامج وما لحق ذلك من تطورات. انزعج مبارك بداية لأن ليبيا أوت البرنامج بعد أن أوقف فى دبى، وانزعج أكثر من مواصلتى لانتقاده بحدة، ويبدو أن انزعاجه بلغ حده عندما اتصل تليفونيا بالقذافى.

قال لى أحد الأصدقاء الليبيين الذين كانوا يحيطون بـ«القائد» إنه حضر المكالمة وإنها استغرقت 22 دقيقة، وإنها تناولت فى البداية عددا من المسائل الشائكة فى العلاقات المصرية ـ الليبية، ثم شكا مبارك من البرنامج، وعندما لم يعده معمر بإجراء محدد لوَّح مبارك فى ابتزاز مكشوف بأنه قبل أيام منع إحدى الصحف القومية المصرية من فتح النار على القذافى شخصيا، وطلب منه صراحة أن يتخذ موقفا لا يقل حسما.

ولما كنت لا أشك فى صدق الصديق الليبى فقد فتحت النار أنا الآخر، وأعلنت فى أكثر من برنامج تليفزيونى استضافنى بعد عودتى إلى القاهرة أن الرئاسة هى السبب فى إيقاف «قلم رصاص»، ليس فقط فى «الليبية» وإنما أيضا فى قناة دبى.

بعد أيام اتصل بى المهندس أسامة الشيخ وقال إن وزير الإعلام أنس الفقى طلب منه إبلاغى أنه «يود أن ينقل لك رسالة مؤداها أنه لا أحد فى الرئاسة ضدك، بل إن الكل يرحب بعودتك إلى القاهرة ولا يمانع فى أن تعمل بأى من المؤسسات المصرية.«

ولم تمضِ أيام حتى طلبنى الدكتور زكريا عزمى يبلغنى بالرسالة نفسها وذات النص، حتى هيئ لى أنه إذا لم تكن مملاة من الرئيس السابق ذاته فلا بد أن أحدا ما أرسل نصها مكتوبا إلى الفقى وعزمى.

عندها قلت: «ولكن ذلك غير صحيح يا دكتور.. أنتم الذين أوقفتم البرنامج»، سألنى زكريا عزمى إن كنت أملك دليلا ماديا على ذلك، فأجبت بالإيجاب على الرغم من أنه لم يكن فى حوزتى بالطبع مثل هذا الدليل، قال: «إذن نلتقى ونناقش الأمر»، أجبت بأن له أن يحدد الموعد والمكان، وكانت هذه آخر مرة أسمع فيها صوت زكريا عزمى.

ما إن مرت عدة أسابيع حتى كلمنى على ماريا القائم بأعمال مكتب المتابعة الليبى فى القاهرة، كنا فى مطلع شهر أكتوبر 2009، لم أعد أندهش مما تأتى به مثل تلك المكالمات من مسئولين ليبيين، دعانى، باسم القائد، لزيارة ليبيا «للمشاركة فى الاحتفال الذى سيقام بمدينة سبها فى الجماهيرية العظمى بمناسبة مرور 50 عاما على تأسيس حركة الوحدويين الأحرار.«

قررت أن أقبل الدعوة على الرغم من كل شيء لسبب وحيد أن أحصل على حقوقى وأغلق ملف «الليبية»، كنت عازما على أن أحدث «القائد» فى الأمر عندما ألتقيه، وكان ذلك مقررا فى اليوم التالى الذى سنذهب فيه إلى بلدة «سبها.«

أعد مسرحا مفتوحا كبيرا امتلأ بألوف من أهل «سبها»، تطل عليه منصة اصطففنا فى ناحية منها ننتظر «القائد»، كان يبدو يومها أكثر وقارا وأقل اندفاعا، لم يطرق المائدة التى أمامه بقبضته، ولا رفع يديه وصوته مهللا هاتفا كعادته، ولم يقذف بورق بين يديه كما فعل فى الأمم المتحدة أثناء كلمته.

جلس القذافى على المنصة يحيط به ضيوف الشرف القادمون من مناحى الأرض جميعا، وجلست إلى جانبه ابنته عائشة، وأخذ منظمو الحفل يسوقون الضيوف إلى المنصة العريضة التى تعلو عن الأرض بضعة أمتار، وجاءنى أحمد قذاف الدم يطلب منى الصعود إلى هناك لكننى اعتذرت، فقد كنت مشحونا بالغضب من تعامل «الليبية» معى، وكنت أعرف أننى لو وقفت أمامه وجها لوجه فلا مناص من أن أتكلم بحدة، ولم أجد هذا لائقا فى مناسبة عامة كهذه المناسبة.

أشهد أن قذاف الدم كان كريما ليلتها معى، تفهم رغبتى فى الجلوس فى الحديقة دون أن يلح، ثم مر بى أكثر من مرة همس لى فى إحداها بحكاية الطباخين الذين أهداهم زعيم يوغوسلافيا «تيتو» إلى «القائد»، وأخبرنى بأن السفرجية الذين يقدمون لنا العشاء إيطاليون، تبهج معمر كثيرا مثل هذه اللفتات.

سادة ليبيا فى الماضى يخدمون ضيوفها اليوم، على الرغم من أنه عفا عن إيطاليا بعد أن اعتذر رئيس وزرائها برلسكونى عن حقبة الاستعمار ودفع التعويض المناسب، ولو أنه أخذ فى مقابل العفو ترضيات مجزية.

• عدالة السماء أنهت حياة العقيد فى «أنابيب الصرف الصحى» حكاية مكالمة الـ 22 دقيقة بين مبارك ومعمر التى انتهت بوقف برنامجى ومصادرة القناة

كانت هذه آخر مرة أرى فيها القذافى قبل أن يلقى مصيره البشع وهو مختبئ فى أحد أنابيب الصرف فى سرت، جفلت من المشهد الوحشى الذى مثّل إساءة بالغة للثورة والثوار، ولكننى، شأن كثيرين كما أعتقد، أيقنت مرة أخرى أن عدالة السماء اقتصت لأولئك الذين أصدر عليهم القذافى أحكامه بالسجن والتعذيب والإعدام، إلَّا أننى ما كنت أود أبدا أن يتم القصاص على أيدى قوى الغرب وحلفائه فى قطر، أو أن ينتهى بتسليم البلاد إلى الظلاميين الذين أغرقوا البلاد فى الفوضى.

كنت كغيرى مهتما بتصريحات الدكتور محمد البرادعى فى الخارج، خاصة عندما أعلن فى CNN أنه يعتزم خوض انتخابات الرئاسة المقررة فى 2011 إذا ما رفعت القيود الدستورية على الترشيح.

حاولت الصحف القومية تلويث سمعة البرادعى بأكبر قدر من البذاءات والشائعات، من بينها مثلا أنه حاصل على الجنسية النمساوية، ولكننى تحققت من كذب هذه الشائعة، أما الشائعة الأخرى فإنه عميل للولايات المتحدة، وأنه هو الذى أعانها على غزو العراق عندما قام مع وزير الخارجية السويدى السابق هانز بليكس بالتفتيش على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية العراقية، فلم تكن تقوم على أساس.

قررت الذهاب إلى المطار لاستقبال الدكتور البرادعى يوم الجمعة 19 فبراير 2010، وتجمع نحو ثلاثة آلاف شخص فى المطار، تأخرت الطائرة نحو ثلاث ساعات، وعندما استطاع الرجل أن يجد طريقه بين الجموع التى تدافعت تجاهه، فوجئت به يستقل سيارته وينطلق بها وسط الشباب الذين كانوا قد قضوا ساعات فى ساحة المطار ينادون باسمه، فلا تتوقف السيارة لحظة لتحيتهم، وإنما تنطلق بسرعة حمقاء لا تمكِّنه من أن يطل عليهم من كرسيها الخلفى وراء الزجاج المغلق.

فى 23 فبراير استضاف الدكتور البرادعى أغلب ممثلى القوى الوطنية وعددا من الشخصيات المستقلة فى منزله فى اجتماع أعد له د. حسن نافعة، وكانت هذه أول مرة ألتقى فيها البرادعى.

توصل المجتمعون إلى ضرورة تأسيس جمعية وطنية للتغيير يعلن البرادعى قيامها، وقام عصام سلطان بكتابة بيان مختصر، ولكن البرادعى تردد كثيرا قبل أن يمتثل للضغوط، ويوافق على أن يعلن قيام الجمعية بنفسه، وأكد أن ذلك لا يعنى أنه رئيسها.

فى الأيام التالية بدأ البرادعى يباشر بنفسه وضع تصور لخطة عمل الجمعية وآليات تنفيذها، وعقد اجتماعا مطولا لهذا الغرض مع حسن نافعة ود. أبوالغار ود. الأسوانى، ثم سافر.

اتفقنا بعد عودة البرادعى على توزيع العمل بيننا فى لجان يعيَّن لكل منها مسئول، فأصبح الدكتور عبدالجليل مصطفى مسئولا عن الاتصال والتوقيعات على بيان الجمعية، والدكتور أبو الغار مسئولا عن المصريين فى الخارج، والدكتور محمد غنيم وجورج إسحق مسئولين عن لجان المحافظات، والمستشار الخضيرى مسئولا عن اللجنة القانونية، وعصام سلطان مسئولا عن مساندة الأعضاء، أما أنا فكلفت بأن أكون المتحدث الإعلامى للجمعية.

معلومة مغلوطة

بعد أن التقينا الصحفيين انتحيت بالدكتور البرادعى جانبا، قلت: «يا دكتور محمد أنت تعلم بالطبع أننى ناصرى، ولكن ما سأحدثك فيه الآن لا ينطلق من هذه الخلفية، فقد عاهدنا أنفسنا جميعا أن نطرح جانبا معتقداتنا السياسية ونعمل أولا على إحداث التغيير، لقد قرأت اليوم حديثك فى جريدة المصرى اليوم، ويؤسفنى أنك ذكرت فيه معلومة مغلوطة هى أن عبدالناصر دفن الإخوان المسلمين أحياء فى سنة 1967، هذا أولا غير صحيح، لكن الأهم من ذلك أن نشره سوف يستعدى الناصريين، ونحن لا نريد استعداء أى فريق سياسى، بينما نعمل على تجميع الكل حول أهداف الجمعية»، طمأننى الدكتور البرادعى أنه سيراعى ذلك فى المستقبل.

فى اليوم التالى نزل البرادعى إلى الشارع لأول مرة ليصلى الجمعة، وبعد أن طاف بشارع المعز توجه للصلاة فى مسجد الحسين، كنا نظن يومها أن احتكاكه بالناس سيدفعه للنزول إلى الشارع واللقاء بالجماهير، إلا أن استقباله فى الحسين لم يثمر سوى عن افتتاحه لحسابه الشهير على «تويتر»، وكنا قد لاحظنا قبل ذلك أنه وجه شكره للشباب الذين استقبلوه فى المطار من خلال رسالة فى «فيس بوك»، أما عندما أعلن عن حضوره مؤتمر «الحملة الشعبية لدعم البرادعى» فى 17 ديسمبر 2010، فقد غاب عن المؤتمر، وفسر غيابه بمرض والدته، وألقى كلمة فى المؤتمر عن طريق الموبايل.

التواصل بالإنترنت

منذ اليوم الأول كان البرادعى يتحدث إلى الناس عن بعد، وكان غرامه بشبكة الإنترنت واضحا، وكانت هى وسيلته الأولى للاتصال بمؤيديه بل وبأقرب معاونيه أيضا، وعندما أبلغناه اندهاشنا لسفره بعد أيام من استقباله الحماسى فى المطار كان رده جاهزا: «الإنترنت ألغت المسافات»، وكان يكرر هذا الرد كلما سافر.

أما أثناء وجوده فى القاهرة فكان برنامجه مزدحما بلقاءات وفود من مختلف الطوائف، ومن الشباب خاصة، لكنه لم يعقد مؤتمرا جماهيريا واحدا، لم أستطع وقتها أن أجزم بالسبب فى ذلك، هل لأنه ينفر من الجماهير، أم لأنه يخشاها، أم لأنه يحتقرها؟ لم أكن قريبا منه بالقدر الذى يمكننى من التعرف على ما فى داخله.

سندوتش فول

كنا كثيرا ما نتندر فيما بيننا وقتئذ بقصة سائق المستشار الخضيرى الذى كان يتأفف إذا ما علم أنه سيقل المستشار من الإسكندرية إلى القاهرة ليقابل الدكتور البرادعى، شاكيا أنه عندما يذهب إلى هناك فهو عادة ما يحتاج إلى واسطة للحصول على كوب من الشاى.

ولكننا ونحن نتندر على ما فى الأمر من طرافة كنا نعرف دلالته، وهى أن الدكتور البرادعى ومن حوله لم ينجحوا فى التواصل الإنسانى مع من يترددون عليهم، بل إننا نحن المسئولين فى الجمعية، الذين سمتنا الصحف «أمناء سر البرادعى» أو «حكومة الظل»، لم يعرض علينا مرة إذا ما تأخر اجتماعنا لديه فى المساء أن نتناول سندوتش فول أو نذهب إلى مطعم قريب نتناول فيه عشاءنا معا، لم نجد فى طباعه أى لمسة شرقية.

الأهم من سندوتش الفول أن لا أحد منا كان يستطيع أن يتصل بالبرادعى مباشرة، فقد احتفظ برقم هاتفه سرا على الجميع، وكان الطريق الوحيد للاتصال محصورا فى شقيقه على البرادعى الذى يلازمه كظله، نقول له ما نقول وننتظر الرد أيضا من خلاله، أما إذا كان هناك أمر عاجل فلا

سبيل لإبلاغه سوى من خلال البريد الإلكترونى، وكنا نكظم غيظنا؛ آملين مع مرور الأيام أنه سوف يدرك أن هذا الأسلوب لا يليق مع القامات التى التفت حوله.

أزمة المبعدين

الأزمة الحقيقية التى واجهت الجمعية كانت قد وقعت يوم 8 أبريل عندما أبعدت الكويت 26 مصريا كانوا فى طريقهم كعادتهم كل أسبوع إلى مقهى للتشاور فيما يمكنهم عمله للحصول على حقهم فى التصويت فى انتخابات بلادهم، وهو الحق الذى دعت إليه «الجمعية الوطنية للتغيير» ضمن مطالبها السبعة.

معظم هؤلاء تم اعتقالهم فى اليوم السابق للموعد، والبعض اعتقلوا من أماكن عملهم، وسيقوا مقيدين بالأغلال أمام زملائهم كأنهم مجرمون فى حوادث جنائية، وآخرون اختطفوا، وهم فى طريقهم إلى المقهى، واحتجز عدد آخر لأنه تصادف وجودهم لمجرد الفرجة بعد أن بات الجميع ليلة لدى أمن الدولة تعرضوا فيها لتحقيقات مضنية حول صلتهم بالدكتور البرادعى، بدأت السلطات الكويتية فى ترحيلهم فى اليوم التالى دون أن يقدموا للمحاكمة.

كنت على صلة بواحد من هؤلاء المرحلين فاتصلت بى عائلته تبلغنى الخبر، فنقلناه للدكتور البرادعى، ولكننا كنا نعرف أن تعليقه سيأتينا متأخرا خاصة أنه كان فى إجازة فى منتجع بالبحر الأحمر طالت بضعة أيام بمناسبة شم النسيم.

اتصلت بالدكتور حسن نافعة واتفقنا على إصدار بيان عاجل نستنكر فيه الحادث، وعلى الاتصال بالسفير الكويتى بالقاهرة، وعلى إخطار المحامى عصام سلطان المسئول عن لجنة مساندة الأعضاء، وأخذنا فى إبلاغ منظمات حقوق الإنسان المصرية والكويتية والعربية بالخبر فى سعى ليعامل المرحلون معاملة حسنة إذا لم نستطع إيقاف ترحيلهم من الكويت.

صغت البيان واتفقت على نصه مع حسن نافعة وأرسلته للصحف، وأرسلت النص إلى على البرادعى، فإذا به يرد برسالة يطلب منى فيها إيقاف توزيع البيان أو سحبه إذا ما كنت قد أصدرته، وأضاف أنه قد «تم الاتفاق على أن الدكتور البرادعى هو وحده المخول بإصدار بيانات باسم الجمعية»، ثم نقل لى نص رسالة الدكتور البرادعى، بالإنجليزية كالعادة، ترجمة رسالته تقول: «هذا البيان يمكن أن يصدر بصفة شخصية، على لسان شخص أو مجموعة أشخاص، ولكن ليس باسم الجمعية، إننا لا نعرف القانون الكويتى، ولا نريد أن ندخل فى نزاع مع الحكومة الكويتية أو حكومات عربية أخرى، نحن لا نعرف كل الحقائق، كما أن الجمعية التى تمثل جميع المصريين يجب أن يقتصر حديثها على مطالبها السبعة المتفق عليها، أما باقى الأمور فيجب التعبير عنها فى تصريحات خاصة كما أفعل أنا فى تويتر، وهذا الموضوع بالذات يخص الحكومة المصرية حتى الآن .

كذب

صدمتنى الرسالة لأسباب عدة؛ أولها أن الدكتور البرادعى لم يكلف نفسه الاتصال بى أو بأى من الزملاء لاستيضاح الأمر ومناقشة التصدى له.

السبب الآخر هو أن الرسالة فيها كذب لا وصف آخر له غير الكذب؛ إذ إننا لم نتفق من قبل على أن إصدار بيانات الجمعية مقصور على البرادعى وحده، ثم إن ما فاجأنى أيضا كان معالجة الموضوع بأسلوب المنظمات الدولية البيروقراطى، وخذلان أنصارنا.

أرسلت الرد، وكان نصه: «الأخ الأستاذ على البرادعى، أبلغتنى فى رسالتك أن الدكتور البرادعى هو المخول وحده بإصدار البيانات باسم الجمعية كما هو متفق عليه، وبالرغم من أننى لم أبلغ باتفاق كهذا فإن الرسالة على هذا النحو تلغى مسئولية اللجنة الإعلامية أو المتحدث الإعلامى، وهكذا فإننى أطلب منك إبلاغ الدكتور البرادعى والزملاء المسئولين عن بقية اللجان أننى أعفيت نفسى من أى عمل إعلامى يتعلق بالجمعية التى سأظل وفيا لأهدافها السبعة من أجل التغيير، تمنياتى.«

مع الجنزورى

كنت وقتها على صلة بالدكتور كمال الجنزورى رئيس الوزراء الأسبق، كان قد اتصل بى عندما أذيع حديثى مع عمرو الليثى ليهنئنى على الحديث، وكان هذا أول اتصال بيننا، قال إنه يود أن يرانى، فذهبت إليه فى مكتبه الخاص الذى لم يكن يبعد عن بيتى كثيرا فى مصر الجديدة، وبعدها أخذت أتردد عليه بانتظام.

كان شديد الانتقاد للحلقة المحيطة بمبارك، وقارئا جيدا للمقالات السياسية، وفى أكثر من مرة طلب منى أرقام تليفونات الكتاب المعارضين ليبلغهم إعجابه بما كتبوه أو ليناقشهم فيه، وحمَّلنى رسائل إلى البعض منهم، وعندما أسسنا الجمعية الوطنية للتغيير حاولت أن أحثه على إصدار بيان يعلن فيه معارضته للحكم، ولكنه آثر التريث حتى لا يرتبط ذلك بعودة البرادعى، الذى لم يكن متحمسا له حماسه للجمعية، كان شديد الانتقاد لغياب البرادعى المتكرر عن مصر، وكان دائما ما يطلب منى أن نضغط عليه حتى يعود.

مقر للإيجار

يئست مجموعتنا من الحديث عن حضور البرادعى وغيابه، إلَّا أننا عندما اجتمعنا فى 9 مايو ناقشنا أمرا آخر كنا قد بحثناه من قبل، هو البحث عن مقر للجمعية يجرى فيه البرادعى لقاءاته، ونعقد فيه اجتماعاتنا.

وكنا قد حدثنا البرادعى من قبل فى ذلك، متسائلين عما إذا كان مكتب والده للمحاماة فى وسط البلد يمكن أن يصلح للغرض، لكنه قال إن المكتب شأن العائلة لا شأنه، فطلبنا من جورج إسحق أن يوظف اتصالاته للبحث عن مكتب نستأجره.

بلغنا جورج فى اجتماعنا هذا أن هناك عدة مكاتب متاحة، وأن إيجارها يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف جنيه شهريا، فقررنا أن نسهم جميعا فى سداد الإيجار، لكننى سألت: وهل سيسهم معنا الدكتور البرادعى هو الآخر؟ جاءت الإجابة من أحدنا: «الدكتور البرادعى قال إنه لن يسهم فى

استئجار مكتب»، قلت: «وأنا لن أساهم إلَّا إذا دفع هو نصيبا مماثلا لأنصبتنا جميعا .

كان التواصل بين البرادعى وبين قيادات الجمعية قد أصبح محدودا للغاية، وبدا واضحا أيضا أنه لا يثق كثيرا فى الجمعية الوطنية للتغيير، وربما كان هذا هو السبب فى ذهابه لزيارة الإخوان المسلمين فى مقر كتلتهم البرلمانية فى المنيل، وما دفع الإخوان ليعلنوا حشد كل قواهم لجمع التوقيعات على بيان الأهداف السبعة.

بشائر يناير

عندما أتى يناير ذهبت لأول مرة، بعد سنوات الغربة، إلى ضريح عبدالناصر لنحتفل بذكرى مولده يوم 15، ونلتقى الناصريين القادمين من الأقاليم، كان همنا يومها أن نحشد القوى الوطنية خلف الدعوة التى كانت الجمعية الوطنية للتغيير قد أطلقتها فى اليوم السابق لتشكيل حكومة إنقاذ وطنى لفترة انتقالية.

يوم 22 يناير جاء شباب الجمعية الوطنية للتغيير يعرضون على قيادتها خطة التحرك فى 25 يناير التى حددتها قوى الشباب بحركاتها المختلفة، وكانت تقوم على أساس الانطلاق من مناطق القاهرة الأكثر فقرا مثل بولاق وإمبابة وناهيا وشبرا متجهة إلى ميدان التحرير، فإذا لم يكن التحرك كبيرا بالقدر المأمول يتحول إلى اعتصام فى ميدان مصطفى محمود، وفى عواصم المحافظات كانت الخطة تقضى بتوجه المظاهرات للتجمع فى ميادينها الكبرى، وفى اليوم التالى اجتمعنا فى الجمعية الوطنية للتغيير، حيث دعونا إلى أن تكون وقفتنا يوم 25 أمام مكتب النائب العام مع البرلمان الشعبى، فى هذا الاجتماع قال عصام العريان إن الجماعة ستقصر مشاركتها فى الوقفة على بعض رموزها فقط، لكنها لن تمنع من يريد النزول من شبابها.

مطلوب أمنيا

اتصل بى ليلتها شقيقى عاصم، وهو ضابط شرطة سابق، يحذرنى من أن الشرطة تتحين ظهورى فى أى مظاهرة بالشارع لاعتقالى بعد الخطاب الحاد الذى كنت قد ألقيته قبل أسابيع فى نقابة الصحفيين احتفالا بحصول علاء الأسوانى على جائزة «الإنجاز العلمى» من جامعة إلينوى الأمريكية.

لكن القوى الوطنية كانت قد قررت النزول على الرغم من الإنذار الذى وجهته لنا وزارة الداخلية بضرورة الحصول على تصاريح للتظاهر، وكان اللواء إسماعيل الشاعر مساعد وزير الداخلية قد صرح يوم 24 أيضا بأن «الوزير أصدر توجيهات باعتقال من يخرجون على الشرعية.«

وأنا فى طريقى إلى دار القضاء العالى كنت أعتقد على الرغم من ثقتى بإحكام التخطيط للمظاهرات، أنها سوف تجبر النظام على إقالة وزير الداخلية، وربما تقديمه للمحاكمة بتهمة التعذيب، وسوف تتجاوب مع بعض المطالب الشعبية مثل تحديد الحد الأدنى للأجور مثلا، وعندها نلتقط أنفاسنا، ونعاود التجهيز لخطوة أخرى، لكننى لم أستبعد قط أن يضطر مبارك إلى إقالة الوزارة، وتشكيل حكومة إنقاذ لتسد بعض أبواب الغضب.

فى الثانية عشرة كان عددنا قد بلغ الألف تقريبا أمام دار القضاء العالى، لكننى لم أشاهد من قيادات الإخوان أحدا سوى محمد البلتاجى، فى حين كانت قوات الشرطة التى تحيط بنا وتلك الرابضة فى لوريات الأمن المركزى تزيد على عدة آلاف.

متظاهرة من مدريد

فوجئت بشقيقتى مآثر تشق طريقها نحونا فحاولت أن أثنيها عن البقاء، ولكنها قالت إنها وصلت من مدريد فى الليلة السابقة لتشهد هذه اللحظة، تمكنت بعد حوالى نصف الساعة أن أقنعها بالذهاب، وأن أجد ضابطا شابا سمح لها بالخروج خرقا للتعليمات التى كانت تقضى بحصار الوقفة ومنع

الدخول إليها أو الخروج منها، وعندما ركبت سيارتها عدت ثانية حيث كان الخطباء يصعدون إلى السلالم ليلقوا خطبهم النارية واحدا بعد آخر.

قصة الأيام الثمانية عشر المجيدة بعدئذ أصبحت معروفة للكل، لا أدعى أنه كان لى فيها دور يذكر إلى جانب دور الملايين الذين حققوا الحلم، كانت الطليعة يومها للشباب والضحايا كانوا فى صفوفهم.

عندما قرأت صحف الصباح فى اليوم التالى، 26 يناير، لم أفاجأ بنشرها تصريحا لجورج إسحق قال فيه: «الله يحرق البرادعى.. لا نريد معرفة أى شىء عنه»، كان يشير إلى غياب الدكتور البرادعى عن يوم اندلاع الثورة، غاب البرادعى بعد ذلك عن جمعة «الثورة أولا» فى 8 يوليو 2011، وتخلف أيضا عن الاحتفال بالذكرى الأولى لثورة يناير فى 2012، وكان قد أعلن قبل ذلك بأيام انسحابه من انتخابات الرئاسة.

عندما فوجئ البرادعى بالإحباط الذى حدث للشباب، وبانقلاب بعضهم عليه، حاول أن يحتوى الموقف بالدعوة إلى تأسيس كيان هلامى سماه حزب الدستور .

لماذا حزب الدستور؟

كتبت عندئذ مقالا بعنوان «لماذا حزب الدستور؟»، وتساءلت: لماذا كل هذا الجهد لقيام حزب جديد، وهناك حزب يرفع الشعارات نفسها مثل الحزب المصرى الديمقراطى الاجتماعى؟ لماذا لم يندمج «الدستور» فى أى حزب آخر يتفق معه فى الأهداف بدلا من عناء قيام حزب جديد؟ لكن الأحزاب «المدنية» لم تتحالف فى تكتل سمى «جبهة الإنقاذ» إلَّا كرد فعل على قيام الدكتور مرسى، الرئيس عندئذ، بإصدار إعلانه الدستورى فى 21 نوفمبر 2012 وعندما علمت أن البرادعى سوف يتصدر قيادتها لم أستبشر كثيرا بالخبر.

خائن.. متردد.. كاذب

مرت الأيام، وبعد 30 يونيو عادت الجبهة فعلقت عليه آمالها، وأعلنت مع تنسيقية 30 يونيو أنهما يفوضان الرجل متحدثا باسمهما مع القوات المسلحة، وانتهى التفاوض إلى تعيين البرادعى نائبا للرئيس فى 9 يونيو 2013، ولكنه خان الأمانة التى علقها عليه أنصاره، واستقال فى 14 أغسطس احتجاجا على فض اعتصامات مؤيدى مرسى بالقوة، لم أجد فى ذلك جديدا؛ إذ كيف ينجح البرادعى فى إدارة شئون الدولة وهو الذى لم ينجح فى إدارة شئون حزبه؟ وعندما كتبت يومها أقول إن البرادعى، كما عرفته، متردد، كاذب، أنانى، لا يتحمل مسئولية، لا يقبل رأيا آخر، البرادعى ليس منا، لم أكن أقول يومها شيئا جديدا.

عندما انتهى سباق الانتخابات الرئاسية عام 2012 بالإعادة بين الدكتور محمد مرسى والفريق أحمد شفيق، اختصرت مقالي في «المصري اليوم» في عدة سطور كانت بمثابة بيان عنوانه «نداء إلى قوى الثورة»، قلت فيه إن الانتظار لن يطول بنا لأربع سنوات، سيتفجر السخط الشعبي غدا أو بعد غد أيا ما كان الفائز هذه المرة.«

أجريت الجولة الثانية للانتخابات الرئاسية يومي 16 و 17 يونيو 2012، وفى مساء يوم 21 جاءتني مكالمة من د. محمد البلتاجى يدعوني مع آخرين للاجتماع مع مرسى لمناقشة الموقف بعد الجولة الثانية، ولم تكن نتيجة الجولة قد ظهرت بعد.

موقف المجلس العسكري كان وقتها غامضا تماما، كل ما كنا نعلمه أنه على صلة مستمرة مع الفريق شفيق، لكنه كان قد فتح قناة للاتصال مع الإخوان أيضا من خلال الدعوة السلفية وحزب النور.

السلفيون والجيش

كان السلفيون يطبخون شيئا مع المجلس العسكري في تلك الأيام السابقة على الجولة الثانية للانتخابات، لكن هذه الطبخة لم تنكشف سوى بعد الانتخابات بشهور، عندما صرح الشيخ ياسر برهامي في نوفمبر 2013 أن المجلس كانت لديه مخاوف من سيطرة الإخوان على الحكم إذا فاز مرشحهم في الانتخابات، فاتفق مع السلفيين على أن يطلبوا من الإخوان تقديم مبادرة تتضمن توجيه رسالة تطمين قوية لجميع مؤسسات الدولة وجميع أطيافها، والحرص على دعم الدولة الحديثة، وتقديم تعهدات من قبل الرئيس القادم تضمن تحقيق الاستقرار داخل الوطن، وعدم تصفية مؤسسات الدولة بدعوى مواجهة الفساد، ولكن من خلال إعادة هيكلتها بشكل تدريجى يضمن استقرار كيان هذه المؤسسات (الشرطة، القضاء، المخابرات، المحافظين، والمحليات)، وإعادة النظر فى تشكيل الجمعية التأسيسية لكتابة الدستور، إلخ.

لو كان المجلس العسكري قد أفصح عن نواياه عندئذ، أو كان حزب النور قد اتصل بالقوى المدنية لكانوا قد شكلوا قوة ضاغطة لا يمكن بحال تجاهلها، خاصة أن عددا من القيادات السياسية البارزة كان قد أعلن عن مبادراته.

مع الإخوان.. مباشرة

ذهبنا مباشرة إلى الإخوان المسلمين الذين تتركز المخاوف من احتمال لجوئهم إلـى العنف إذا ما فاز شفيق، وذهبنا إليهم في العلن وبسرعة، هكذا قررت أن المغامرة تستحق، خاصة أن ضررها يقع عليَّ وحدى، ولم أزعم إنني أمثل أحدا، مضيت في طريقي إلى فندق «فيرمونت.«

عندما دخلت قاعة الاجتماع وجدت عبدالغفار شكر هناك، ثم دخل عبدالجليل مصطفى وبعده حسن نافعة وسكينة فؤاد وعبدالخالق فاروق الذين كانوا في اجتماع التيار الثالث أيضا، وشارك في الاجتماع كذلك د. عمار على حسن ود. محمد السعيد إدريس ود. هبة رءوف والنائب سعد عبود ود. رباب المهدى وأيمن الصياد ووائل قنديل ومحمد الصاوي ود. سيف عبدالفتاح، أما شباب الثورة فكان هناك منهم وائل غنيم وشادي الغزالي حرب ووائل خليل ومحمد القصاص وإسلام لطفى وطارق الخولي وأحمد إمام ومصطفى شوقي. وعلاء الأسواني جاء متأخرا، وقال ما عنده في دقائق، ثم غادر لارتباطات أخرى ولم يحضر ثانية.

أتيح لي أن أكون أول من تحدث فى الاجتماع، كررت مخاوفي مما إذا كان الإخوان المسلمون يحشدون الناس فى العلن لرفض قرارات المجلس العسكرى وإعلاناته الدستورية فى الوقت الذى يجرون فيه الاتصالات كعادتهم مع المجلس فى الخفاء.

وأعاد الكل على مسامع الدكتور مرسى كل ما يزعجهم بلا تزويق ولا مجاملة، بعدها انتقلنا إلى صلب ما ذهبنا من أجله، يا د.مرسى، إذا شاءت لجنة الانتخابات الرئاسية أن تكون الرئاسة لشفيق فنحن هنا معكم لكى نحول دون أن ينزلق البلد إلى شفا هاوية، وإذا كانت الرئاسة من نصيبكم فلن يمكنكم البقاء فى الحكم بتأييد الإخوان وحدهم، الشعب له مطالب عليكم

أن تلبوها، إن تعهدتم بتلبيتها أمام الشعب فسنساندكم، بل ونصطف معكم فى جبهة واحدة، وإن حدتم عنها كان هذا فراقا بيننا وبينكم، طال النقاش بيننا حتى الرابعة فجرا.

تعهدات مرسى

في مؤتمرنا الصحفي الشهير يوم الجمعة 22 يونيو، أى قبل إعلان النتيجة بعدة أيام، كررنا نحن ثباتنا على موقفنا، وقلت فى كلمتى إننا نرفض الهيمنة باسم الدين أو الاستبداد باسم العسكر وإننا نتسامح فيما مضى من أخطاء، وتعهد محمد مرسى بما تعهد به أمام الناس جميعا، دولة ديمقراطية مدنية، كفالة الحريات، ضمان حقوق المواطنة، نواب رئيس من الأقباط والشباب والنساء مسئولون عن ملفات محددة، رئيس حكومة مستقل، حكومة غالبية وزرائها من غير الإخوان، وجمعية تأسيسية للدستور تمثل أطياف الشعب.

فى اليوم التالى لما سمته الصحافة «إعلان فيرمونت» شُكلت من المجتمعين جبهة سمت نفسها «الجبهة الوطنية لاستكمال الثورة» ضمت أيضا عددا محدودا من قيادات الإخوان، كان من أنشطهم البلتاجى وخالد حنفى (أمين حزب الحرية والعدالة فى القاهرة فيما بعد)، وعلى الرغم من أننى لم أحضر الاجتماع التأسيسى للجبهة فقد تم اختيارى منسق للجنتها الإعلامية، لكننى لم أتولَ فعليا هذه المسئولية.

حضرت اجتماعين للجبهة، علمت منهما أن الدكتور سيف عبدالفتاح اختير منسقا لها، وأن الجبهة أخذت فى إرسال ترشيحاتها للمناصب الكبرى إلى الرئيس، وأن أعضاءها اتفقوا على ألَّا يتولوا أى مناصب فى الإدارة الجديدة للدولة، وإن كان الاستثناء الوحيد لهذا القرار هو ترشيح د. عبدالجليل مصطفى رئيسا للوزراء (رفض د. عبدالجليل الترشيح كعادته فى الاعتذار عن أى منصب تنفيذى منذ قيام الثورة.

وجها لوجه

فى يوم 14 يوليو بدأ الرئيس مقابلاته التى سميت «مشاورات حول المشهد السياسى الراهن» باجتماعين؛ كان أولهما مع السفير محمد رفاعة الطهطاوى الذى سمى فيما بعد رئيسا للديوان، والثانى معى، كان انطباعى عنه بعد اجتماعنا المضنى فى «فيرمونت» أنه رجل طيب على الرغم من أنه كان يحاول الإفلات من الالتزام ببند أو آخر من بنود الاتفاق.

بادرنى الرجل بترحيب دافئ، وعندما جلسنا دخل فى الموضوع مباشرة: «كيف ترى الأوضاع؟»، قلت: «يا سيادة الرئيس، كيف لى أن أدلى برأى صائب وأنا لا أعرف بدقة ما يدور حولك فى الكواليس؟.«

تحدثت عن الوضع بقدر ما فهمته، وفصلت بعض الشىء فيما تداولته جبهتنا فى اجتماعاتها، وفى أننا نبعث برؤيتنا بانتظام إلى الرئاسة، لكن ما رجوناه من تشاور يبدو وكأنه اتصال من جانب واحد، بدا على الرئيس الانزعاج، وطلب من الدكتور ياسر على، الذى كان حاضرا الجلسة، أن يذكِّره بالأمر فيما بعد.

أضفت: «موضوع إعادة تشكيل الجمعية التأسيسية للدستور بحيث تكون أكثر توازنا لم يحدث فيه أى تطور، وممثلو الحرية والعدالة فى الجمعية لم ينبس واحد منهم بكلمة تشير إلى ما اتفقنا عليه.«

قال الرئيس: «سنعمل على ذلك»، وأتبع بكلمات امتنان وهو يتذكر الليلة التى توصلنا فيها إلى الاتفاق فى «فيرمونت»، سألت: «وهل تسمح لك القوى التى خلف الستار بتنفيذه؟»، بدأ الدكتور مرسى حديثا مستفيضا فهمت من مجمله أن الرجل مدرك لتعقيدات الموقف، وأنه لايزال يتحسس أقدامه فى حقل الألغام الشائك، ولكنه على استعداد لمغامرة محسوبة، كلمنى أحيانا بالرمز، وكثيرا بصريح العبارة عن علاقاته المتشابكة مع المجلس العسكرى «الذى يحتاج إلىَّ وأحتاج إليه»، ومع القضاء، ومع الإعلام، وحتى مع الشرطة.

كان يرى أن علاقته بالشرطة سوف تسوى، خاصة بعد الاجتماعات المتتالية التى عقدها مع رجالها، لكنه عندما تحدث عن الإعلام كانت كلماته تنطق بخيبة أمل واضحة، قلت: «نحن الإعلاميين نشكو أيضا، لكن الكل مع ذلك مؤمن بأمرين أساسيين: ضمانات الحرية، واستقلال الإعلام الرسمى عن الحكومة»، قال الرئيس: «وأنا الآخر، وأؤكد لك أنه لا يمكن أن تحدث مذبحة للإعلام فى عهدى.«

انتقل بنا الحديث من بعد إلى التعرض بإيجاز لأوضاع المؤسسات الإعلامية، قلت إننى معترض منذ زمن على وجود وزارة للإعلام، واقتراحى أن تكون للإعلام وزارة دولة لنعطى إشارة إلى أنه ليس فى نيتنا الإبقاء عليها إلا لمهمة قصيرة محددة هى إعادة هيكلة أجهزة الإعلام، عندما طرحت بعض الأسماء المرشحة للوزارة، أدركت من تعليقه أن المجلس العسكرى قد تكون له كلمته فى الاختيار، وربما لوزارات السيادة جميعا.

عاد بنا الحديث إلى الوضع العام، قلت: «ربما تندهش يا سيادة الرئيس إذا ما اقترحت عليك التهدئة مع المجلس العسكرى لبعض الوقت، نعم، نحن لا نقبل دولة برأسين، لكننى مع ذلك، أرى التريث قليلا، وأذهب فى القول إلى حد مطالبتك بألا تصغى لفترة إلى صياح الميادين حتى لو تصدرتها أصوات الإخوان، الناس تود أن تلتقط أنفاسها وتنعم باستقرار يتيح للاقتصاد أن ينتعش بعد الاستقطاب الحاد الذى خلَّفته الانتخابات الرئاسية، لكن واجبك الأخلاقى العاجل هو العفو عن المعتقلين والمحاكمين عسكريا، وغير ذلك مقدور عليه.«

قاطعنى الرئيس: «وهذا سيبدأ مع رمضان، وربما قبله»، استطردت: «وعندما تضطر إلى حسم الأمور الأخرى فيجب أن تُحسم فى حزمة واحدة، وأن يتم ذلك بعد تشكيل حكومة وطنية قوية تساندك فى مواجهة التبعات»، كنت أقصد العلاقة مع المجلس العسكرى، ولكننى أوجزت، خاصة وأننى لاحظت أن مرسى يتكلم بحساب خشية آلات التنصت كما كنت أتصور.

أكد الدكتور مرسى أن الحكومة ستتم تسمية رئيسها خلال أيام، وأن اختيار الوزراء متروك لرئيس الحكومة، وإن كان هو معنيا بالأمر بالطبع، شجعنى هذا على تذكيره بكفاءات مرموقة، خاصة ممن يمكن أن تسقط أسماؤهم من الذاكرة بسبب إقامتهم فى الخارج، مثل الدكتور هانى عازر الذى صمم وأشرف على إنشاء محطة سكك حديد برلين، وهى أكبر محطات قطارات فى أوروبا، وحصلت على جائزة أفضل محطة فى العالم.

توقفت أيضا عند اسم الدكتور محمد البرادعى، وقلت إنه إن كانت هناك عوامل فى رأيى تحول دون توليه منصبا دائما، فمن الممكن مع ذلك أن يكون ممثلا شخصيا لك فى بعض المهام الدولية، وتوقفت أكثر عند اسم عمرو موسى، وقلت: «ليته يكون قريبا منك فى موقع يليق به، وليته يقبل»، امتدح الدكتور مرسى بحرارة موقف موسى بعد خسارته الانتخابات، وقال إنه رجل دولة بحق.

كان هذا الصمت يقلقنا كثيرا فى الجبهة مما دعانا إلى إصدار تصريح صحفى طالبنا فيه الرئيس بتنفيذ تعهداته قبل رمضان، أى فى خلال الأسبوعين التاليين.

حكومة قنديل

وفى يوم 28 يوليو، وبعد أن كلف هشام قنديل بتشكيل الحكومة، اضطررنا للخروج إلى العلن، فعقدنا مؤتمرا صحفيا فى ساقية الصاوى، أعلنا فيه استياءنا خاصة من تكليف رئيس حكومة يفتقر إلى المعايير التى تم الاتفاق عليها، ومن الغموض الذى يلف قصر الرئاسة فيما يتعلق بتشكيل الفريق الرئاسى، استأنا كذلك من غياب الشفافية بين الرئيس والشعب، ومن انعدام التشاور مع الجبهة، ومن تجاهل تعديل تشكيل اللجنة التأسيسية للدستور، وطالبنا الرئيس بتصحيح المسار، أى إننا عدنا مرة أخرى ننادى بما نادينا به قبل شهر فى اجتماعنا فى «فيرمونت.«

بعد تولى مرسى الحكم بخمسة أسابيع، نشرت مقالا كان عنوانه «أنعى إليكم الشراكة مع الرئاسة»، وجاء ضمن ما جاء فيه..

»إن لم يكن قد بلغ الرئيس صدى تشكيل حكومة قنديل، فقد بلغنا نحن، بلغنا فى انتقادات حادة حمَّلتنا كشركاء مسئولية الاختيار، ومسئولية خداع الرأى العام الذى أوحينا إليه باتفاقنا مع الدكتور مرسى أن الأمور ستسير على نحو أفضل .

اليوم، بعد تشكيل الحكومة على النحو الذى شكلت به، وبعد النكوص عن التعهدات التى أعلنت ضمن اتفاق الشراكة فى «فيرمونت»، فإننا لا نستطيع تحمل مسئولية هذه الشراكة، بل إنها فى واقع الامر لم تعد قائمة.«

فى خلال ذلك حضرت اجتماعين من تلك الاجتماعات التى كان مرسى يعقدها مع الشخصيات السياسية والثقافية، اكتشفت بعدهما أن هدف هذه الاجتماعات هو الفضفضة ونشر الصور.

وعلى الرغم من أنه كان يبدو كما لو كان ينصت لمن يتكلم باهتمام بالغ ويكتب ملاحظاته كطالب مجتهد، فإننى لاحظت أنه كان منتشيا بكرسيه فى الصدارة، تماما كطفل حصل على لعبة جديدة لم يحصل عليها أى من رفاقه، ولاحظت كذلك أنه أكثر حرصا على أن يؤم المجتمعين فى صلاة العصر بعد كل اجتماع من حرصه على تنفيذ اقتراحاتهم، وهكذا اعتذرت عن الاجتماع الثالث، وأبلغت أمين الرئاسة أن هذه الاجتماعات بلا جدول أعمال وأنه لا جدوى منها.

بدأت فى الوقت نفسه أدلى بتصريحات أو أكتب فى «تويتر» عبارات أكثر حدة، مثل «يصعب الثقة فى أن مرسى سيكون حاكما ديمقراطيا»، «الرئيس أعلن عن أرقام لم يلمسها المصريون»،«ما يفعله الإخوان لم يجرؤ عليه حزب مبارك»، «يا دكتور مرسى وضح لنا علاقتك بصديقك العظيم بيريز»، إلى أن جاءت مظاهرات «جمعة الحساب» فى ميدان التحرير يوم 12 أكتوبر، وهى التى خرجت فيها القوى المدنية تحاسب الرئيس على وعود مائة اليوم، وتعترض على سياسات الحكم خاصة فيما

يتعلق بوضع الدستور، وزاد من الاحتقان يومها مهرجان البراءة لكل المتهمين فى موقعة الجمل.

فجأة اقتحم الإخوان الميدان، واعتدوا على المتظاهرين من القوى الثورية، وحطموا المنصة، فطالبت الإخوان بالانسحاب على الفور من التحرير، ثم كتبت «ننتظر اعتذار الإخوان عن حماقة يوم الجمعة، ننتظر بلا أمل»، وبعد أيام نشرت مقالا فى المصرى اليوم فى 22 أكتوبر كان عنوانه أعلن اعتذارى عن مساندة الرئيس .

العشاء الأخير

دعوت أعضاء الجبهة بعدها بأيام على عشاء فى مطعم «القاهرة 40» فى الزمالك فحضر معظمهم، ولم يحضر من الجماعة إلَّا النائب السابق خالد حنفى، وقلت يومها إننى أردت أن يكون لقاؤنا هذا وديا لأننى على يقين أنه سيكون العشاء الأخير، وقلت أيضا إن الجبهة ليس لها أى ثقل فى المعترك السياسى، وأخذت أعدد ما آلت إليه مطالب «فيرمونت» من ضياع، وأؤكد أننا لم نستطع ولن نستطيع أن نفرض على الرئيس شيئا. فى النهاية قلت إنه لا يمكن لى أن أواصل الانتساب إلى الجبهة إلَّا لو اعتذر الإخوان المسلمون عن أحداث جمعة الحساب، فوعد خالد حنفى بطرح الأمر على قيادتهم، ولكننى كنت أعرف النتيجة مسبقا، هكذا انفض لقاؤنا والكل مدرك أننا لن نلتقى ثانية فى إطار جبهة تأكدنا أنها مجرد وهم، ولم نلتقِ بالفعل.

هجوم من كل جانب

فى ذلك الوقت دعا حمدين صباحى إلى مؤتمر جماهيرى كبير فى ميدان عابدين يعلن فيه تأسيس «التيار الشعبى.«

ألقيت كلمة فى المؤتمر دعوت فيها أعضاء التيار للعمل على حصد أغلبية فى البرلمان القادم تمكننا من الحفاظ على الهوية المصرية وبناء دولة المواطنة والحداثة، وقوبلت الكلمة بحماس من الآلاف التى شاركت فى المؤتمر، إلَّا أنه عند خروجى من السرادق التفت لى واحد من الشباب

الذين ينظمون المؤتمر صائحا: وكانت فين دولة الحداثة دى لما رحت لمرسى؟ .

لم يكن هناك مجال وسط تدافع الجمهور كى أقول شيئا، وعندما اتجهت لسيارتى التى لم تكن تبعد أكثر من مائة متر استوقفنى فى الطريق عدة مرات عدد من الشباب أرادوا أن يناقشوا إعلان «فيرمونت»، وكان أحدهم يتكلم بطريقة فظة فى حين كان الآخرون غاضبين تماما، حتى إن السفير ياسر مراد الذى كان يصحبنى انفعل لأنهم تحدثوا إلى خاله على هذا النحو، كانت هذه أول مرة أظهر فيها بين الجماهير، وكانت تجربة مريرة ترددت بعدها فى الذهاب إلى ميدان التحرير أكثر من مرة.

عندما مررت بالتجربة المُرة الأخرى فى مؤتمر التيار الشعبى تضاعف إحباطى، وزاد من الغم أن صحتى أخذت فى التدهور، واستمر الحال على هذا النحو حتى الآن. وحرمنى ذلك من المشاركة فى العمل العام كما اعتدت من قبل، كما زهدت الظهور فى برامج التليفزيون.

ثم جاءت نكبتى فى مرسى وعهوده، التى انتهت بأننى أعلنت لمن وثق بى يوم إعلان «فيرمونت» اعتذارى عن مساندة الرئيس، جاء هذا الاعتذار بعد أربعة أشهر تماما، نالنى خلالها ما نالنى من أذى من كل جانب، من أنصار شفيق، ومن أنصار الإخوان.

أما أنصار الثورة فكانوا عاتبين علىَّ أشد العتب، إذ كيف أذهب إلى الإخوان على الرغم من درايتى بأساليبهم؟ وكان هناك أيضا المغرضون الذين صمموا على أننى أنا الذى دعوتهم لانتخاب مرسى قبل جولة الانتخابات الرئاسية، واستمر هذا الأذى يلاحقنى حتى الآن، وخاصة من الكتائب الإلكترونية للإخوان التى أدهشتنى سفالة الكثير من رسائلها.

جزاء وفاقا

ربما كنت تحت وطأة ضغط نفسى عندما نشرت اعتذارى، لكن الأيام لو عادت بى مرة أخرى إلى تلك اللحظة، بظروفها ذاتها، لما اعتذرت، لقد حاولت أن أصل إلى تعهد من الإخوان يضمن استقرار البلد وثباته على طبيعته المدنية كما حاول المجلس العسكرى، وحاول البرادعى، وحاول السلفيون، وحاول الكفراوى مع عمرو موسى، وحاول صباحى، وحاولت كل القوى السياسية التى طرحت «وثيقة العهد.«

لكننى كنت الوحيد الذى اعترفت بالفشل فى مسعاه ودفع الثمن غاليا، وكان هذا يكفى، ولم أجد فيه ما يعيب، العيب أن نستمر فى خداع أنفسنا، ومن ثم فى خداع الناس، لم نكن نحن الذين أخطأنا، مرسى هو الذى أخطأ فى حق الشعب؛ ولذلك استحق الجزاء، أما نحن، فمهما كان تقييم الناس لما فعلناه، ومهما كانت ردود أفعالهم، فلن يثنينا شىء عن مواصلة المسيرة لتحقيق أهداف ثورة 25 يناير التى استكملت فى 30 يونيو.

فى أحد أيام مارس 2011، تلقيت مكالمة من مكتب اللواء عبدالفتاح السيسى عضو المجلس العسكرى ومدير المخابرات الحربية حددت لى موعدا لمقابلته.

يومها عبرت الشارع إلى مبنى المخابرات المواجه لبيتى، فوجدته فى انتظارى أعلى السلم المؤدى لمكتبه، كانت هذه أول مرة ألتقى فيها واحدا من أعضاء المجلس الذى كنا نعتبره حينئذ حامى الثورة، وكان انطباعى الأول عندما رأيت الرجل أنه متواضع، دمث الخلق، خفيض الصوت.

استغرق لقاؤنا نحو ثلاث ساعات، دار فيها الحديث حول المجلس العسكرى واستيائه قبل الثورة من الأوضاع التى كانت قائمة، ومما كان يدور من حديث حول التوريث، وقال إنه على الرغم من ذلك كله لم يفكر المجلس لحظة فى الانقلاب على الحكم «لأن الانقلاب غير وارد فى عقيدة القوات المسلحة»، وأخذ يذكرنى بأنه عندما حانت الفرصة بادر الجيش بإعلان موقفه عن طريق المتحدث باسمه عندما قال فى 31 يناير إن «القوات المسلحة لن تستخدم القوة ضد المحتجين، وأن حرية التعبير مكفولة لكل المواطنين الذين يستخدمون الوسائل السلمية»، وبما اتخذته القوات المسلحة من إجراءات بعد ذلك.

تحدثنا كثيرا عن الأوضاع القائمة، وقال إنه يود أن يعقد اجتماعات أسبوعية مصغرة مع بعض الشخصيات المرتبطة بالثورة ليجرى معها نقاشا حول المستقبل، وطلب منى مقترحات فى هذا الأمر، كان حديث الرجل يوحى بأنه يمسك من الخيوط قدرا أكبر مما كنت أظن، وبأنه يستطيع ترتيب أفكاره جيدا.

فى النهاية قال إن المشير يثق بى كثيرا، ويريد منى أن أقدم برنامجا يوميا فى التليفزيون، رحبت، وسألت: «متى؟».. قال: «يريدك أن تبدأ غدا»، استمهلته يومين أرتب فيهما أفكارى وأجرى اتصالاتى.

العودة إلى التليفزيون

حَضَّرت مذكرة بحاجيات التحرير والإنتاج فى صفحة واحدة، وذهبت بها فى اليوم التالى إلى المخابرات، ولما لم أجد اللواء السيسى سلمتها لمساعده اللواء عباس كامل قبل أن أتوجه إلى المنصورة للمشاركة فى المؤتمر الذى نظمه الدكتور محمد غنيم للدعوة للتصويت بلا فى الاستفتاء على التعديلات الدستورية.

عدت بعد هذه الزيارة حانقا على المجلس العسكرى الذى يخطو لتسليم البلاد إلى الإخوان، لكننى وجدت أن الأمانة مع المشير ومع اللواء السيسى تقتضى منى الاعتذار عن تقديم البرنامج.

كان الدكتور سامى الشريف فى ذلك الوقت يرأس اتحاد الإذاعة والتليفزيون، وهو أستاذ بارز فى الإعلام، وإن لم تكن لديه خبرة عملية كافية، وكان قد لاقى مصاعب جمة لم تمكنه من تحقيق إنجاز ملموس.

ويبدو أنه رأى أن أسرع وسيلة يحس بها الجمهور العام أن التليفزيون قد التحق بركب الثورة هو أن يجرى تعديلا جذريا على برنامج التليفزيون الإخبارى الرئيسى «مصر النهارده»، أو استبداله ببرنامج آخر تقدمه وجوه ارتبطت بـ 25 يناير، وهكذا اتصلت بى شركة «صوت القاهرة» التابعة للاتحاد بعد شهر من لقائى باللواء السيسى، واقترحت عليَّ تقديم برنامج جديد.

أخذت أُقَلِّبُ طويلا فى الامر، وأخيرا قررت أن أستكشف سقف الحرية المتاح، فأخذنا فى الإعداد للبرنامج عدة أسابيع، واتفقنا على تقديمه باسم «قلم رصاص»، واخترت الطاقم المعاون، وتم تصميم وتسجيل العناوين، وجاء للقائى فى «صوت القاهرة» الدكتور الشريف والأستاذة نهال كمال التى كانت رئيسة التليفزيون عندئذ؛ ليطمئنا أن الأمور تسير على ما يرام.

الحق أن اللواء سعد عباس رئيس الشركة يَسَّرَ لى كل إمكاناتها، وأحاطنى بكثير من الود، ولكنه عندما اقترب الموعد المحدد لإطلاق البرنامج فى

مايو 2011 كنت قد أصبحت أقل ثقة فى قدرة المجلس العسكرى على إدارة البلاد، وفى مدى تحمله لحرية التعبير فى تليفزيون الدولة الرسمى.

وكانت الصحف عندئذ تحمل لى كل يوم خبرا يفيد بأن هناك معارضة شديدة بين العاملين فى ماسبيرو لتقديمى برنامجا فيه؛ بدعوى أن الفرصة يجب أن تتاح لأبناء التليفزيون الذين لم يعتبرونى واحدا منهم.

ووصل الأمر بتشكيل سمى نفسه «ثوار ماسبيرو» حد الاعتصام احتجاجا، بل وقدم «الثوار» بلاغا إلى النائب العام ضد المذيعة هالة فهمى لأنها تجاسرت ونادت بالاستعانة بى.

لم يغضبنى ذلك كله، ولكننى رثيت لحال هؤلاء الذين لم يعوا أننى كنت أصعد إلى مكتبى فى ماسبيرو على السقالات فى عام 1960، قبل أن يبدأ التليفزيون إرساله بشهور، ومع ذلك كنت أتفهم طموحات الشباب الذين يقدمون البرامج، بل وكنت أقدر عددا من الموهوبين منهم الذين بذلوا بعد الثورة جهدا أعلم أنه شاق، ليبثوا الحياة فى التليفزيون الذى حنطه عهد مبارك.

أوقفت تقديم برنامج «صوت القاهرة»، إلَّا أننى لا أزال أذكر مقالا للأستاذ عبدالرحمن فهمى، فى جريدة «الجمهورية» قال فيه إن الثورة تأكل رجالها، وكذلك مقالا للأستاذة منال لاشين فى جريدة «الفجر»، شككت فيه فى أهداف «ثوار ماسبيرو» وفى رغبتهم فى الاستئثار بما يقال عن كعكة المال داخل المبنى المفلس، كما أذكر أيضا نداء الشاعر جمال بخيت بيومى لى ألَّا أترك ماسبيرو للبوم والغربان وأعداء النجاح، وأذكر قبل ذلك وبعده مواقف العديد من الزملاء فى ماسبيرو الذين تصدوا لأصحاب الأصوات الزاعقة.

وجها لوجه مع شفيق

اكتفيت فى تلك الشهور الأولى التى تلت قيام الثورة بالظهور فى بعض برامج التليفزيون، مثلما فعلت فى المناقشة الشهيرة مع الفريق أحمد شفيق عندما دعتنى « ON TV » مع الدكتور علاء الأسوانى ضيوفا على يسرى فودة وريم ماجد بحضور نجيب ساويرس، كان ساويرس يومها يخشى أن أكون عنيفا مع الفريق شفيق، لكن الأسوانى خدعه وهاجم شفيق بضراوة فى حين كنت أكثر برودا مما كان يظن.

حافظت على هدوئى لسببين؛ أولهما أن أوازن انقضاض الأسوانى الساحق على الفريق شفيق، أما السبب الثانى فلم يكن يعلم به أحد؛ إذ إننى كنت قد قابلت شفيق فى مكتبه بعد أن كلف بتشكيل الوزارة، وصارحته بكل ملاحظاتى.

كان قد تأكد يومها أن الدكتور يحيى الجمل مرشح لمنصب نائب رئيس الوزراء، فتشاورت فى الأمر مع الدكتور عبدالجليل مصطفى وقررنا الذهاب إليه لحثه على رفض المنصب؛ لأننا كنا نرى أن أعضاء الجمعية الوطنية للتغيير، التى كان الدكتور الجمل واحدا من قياداتها، يجب ألَّا يتعاونوا مع حكومة شفيق التى عينها مبارك.

ذهبنا إلى الدكتور الجمل فوجدناه جالسا مع الدكتور أحمد البرعى، جاء الدكتور البرعى ليبلغه أنه مرشح لتولى إحدى الوزارات، وأن زوج ابنته الدكتور هانى سرى الدين مرشح لوزارة أخرى، وأنه يرى أن هذا لا يليق؛ لذلك فهو يفضل الانسحاب، ويريد أن يسمع رأى الدكتور الجمل فى الأمر.

بعد أن انصرف الدكتور البرعى أبلغنا الدكتور الجمل رسالتنا بوضوح، فقال إنه عازف عن المشاركة فى الوزارة خاصة أن صحته لا تسمح بذلك، ولكنه محرج أمام إصرار الفريق شفيق الذى زاره فى مكتبه فى اليوم السابق، ولم ينصرف إلَّا بعد أن أخذ منه وعدا بالموافقة.

خرجت إلى غرفة مجاورة قابلت فيها ابنته الدكتورة مها، المحامية هى الأخرى؛ لتعيننا فى مسعانا لدى والدها، فقالت إنها أبلغته رفضها لمشاركته فى وزارة شفيق لكنه لم يستجب، فاتصلت بواحد من أقرب أصدقائه، المهندس حسب الله الكفراوى، الذى رد قائلا: «قلت له امبارح بلاش فى آخر أيامنا نغلط، لكن الظاهر مفيش فايدة.«

عاودت مع الدكتور عبدالجليل الضغط حتى اتجه لى الدكتور الجمل وقال: «أنت تعرف الفريق شفيق جيدا، لماذا لا تذهب إليه، وتشرح له حالتى الصحية، وتطلب منه أن يعفينى من وعدى له؟.«

اتصلت بمكتب الفريق شفيق وطلبت تحديد موعد لأمر عاجل، وعدت إلى البيت ظنا منى أن الموعد سوف يحدد بعد عدة ساعات على أفضل تقدير، لكننى تلقيت مكالمة من مراسم رئاسة الوزارة وأنا فى طريقى، أبلغونى فيها أن الموعد بعد ساعة، فعدت من حيث أتيت.

دخلت مجلس الوزراء فأخذ الصحفيون يسألوننى إذا ما كنت سأقبل منصب وزير الإعلام وأنا الذى طالبت مرات بإلغاء الوزارة، وسألنى أحدهم: ما أول إجراء سأتخذه عندما أتولى المنصب؟ وهنأنى بعض أمناء الرئاسة وتمنوا لى التوفيق، وبالطبع لم يصدق أحد من هؤلاء أننى جئت لأمر آخر فى الوقت الذى يتقاطر فيه على المجلس المرشحون للمناصب الوزارية المختلفة.

كنت أعرف الفريق شفيق منذ زمن، وكان بيننا ود وتقدير متبادل، قلت له عند دخولى إليه: «أنت تعلم جيدا أننى سأكون صريحا وأمينا معك، تعلم كم أقدرك، وأرى أنك واحد من أفضل من يمكنهم تولى مثل هذا المنصب، لكن ذلك كان فى الماضى، الآن، شئت أم أبيت، أنت محسوب على مبارك، وزمن مبارك قد ولى، وسوف نظل نطارد رموزه، ولا أريد لك أن تتحمل ما سوف تتحمله؛ لذلك أنصحك يا سيادة الفريق بالاستقالة مهما كان الحرج فى ذلك، سوف تواجه ما تأباه على نفسك إذا ما بقيت فى هذا الكرسى»، صمت شفيق قليلا، وشكرنى على إخلاصى معه، وقال فى

النهاية ما خلاصته إنه كجندى لا يمكنه الانسحاب من المعركة، وإننى متشائم أكثر مما يجب.

قلت: «على أى حال لم يكن فى نيتى أن أكدر عليك يومك بالحديث عن هذا الأمر على الإطلاق، والحقيقة أننى قدمت إليك فى أمر آخر يتعلق بالدكتور يحيى الجمل.»

أسهبت فى الحديث عن العملية الجراحية التى أجريت له قبل أسابيع، وعن الأمراض التى يعانى منها، ورجوته ألَّا يضغط عليه كثيرا بينما هو فى فترة النقاهة.

كان الدكتور الجمل حينئذ فى قاعة الاستقبال ينتظر موعده المحدد سلفا مع الفريق شفيق، وكان لقائى بالفريق قد تعدى المدة المقررة له بنحو ثلث الساعة، وعندما خرج ليودعنى، وجدت الدكتور الجمل ينتظر الدخول. همس يسألنى: «قلت له كل حاجة؟»، قلت: «وأكتر.»

بقية الحكاية قالها لى الدكتور الجمل فيما بعد، تحدد موعد حلف اليمين فى اليوم التالى، وعندما حاول الاعتذار مرة أخرى اصطحبه الفريق شفيق فى سيارته، وقال: «تعالَ معى الآن، وبلغ المشير اعتذارك بنفسك.»

بالطبع لم يكن هناك مجال للاعتذار، شكلت الحكومة، وعين الدكتور الجمل نائبا لرئيس الوزراء، وعانى الفريق شفيق ما عانى، حتى كان لقاؤنا فى ON TV الذى استقال فى اليوم التالى له، وعين الدكتور عصام شرف رئيسا للوزراء.

عصام شرف

كنت على اتصال دائم مع الدكتور شرف منذ ترك وزارة النقل فى عهد مبارك، وقتها كنت أقدم برنامجى فى دبى، وأردت أن أستضيفه فى إحدى حلقاته بعد أن فاز بإحدى الجوائز الدولية المرموقة، لكنه اعتذر عندما

أبلغته أننى سوف أسأله أيضا عن خروجه من الوزارة، ومع ذلك حرصنا على التواصل.

صدمت عندما كلف بتشكيل الوزارة لأن خبرته لم تكن تؤهله لهذه المسئولية؛ ولأن هناك من هو أقرب منه إلى الثورة وأقدر.

صحيح أنه كان من الوزراء السابقين القلائل الذين ظهروا فى ميدان التحرير، لكنه لم يتأكد لى أنه قاد، كما كان يقال، مظاهرة أساتذة جامعة القاهرة التى سارت إلى ميدان التحرير فى الأيام الأولى للثورة، بل إن بعضا من رموز حركة 9 مارس أبلغونى أنهم لا يعرفون إذا ما كان قد شارك فى المظاهرة أم لا، والأرجح أن ترشيحه للحكومة بدأ بورقة سربها إلى ميدان التحرير اللواء حسن الروينى قائد المنطقة المركزية وعضو المجلس العسكرى ضمت ثلاثة أسماء يرشح الميدان واحدا منهم لرئاسة الوزارة.

على الرغم من ذلك كنت أعرف أن الدكتور شرف شخصية نقية وجادة، وإن لم يكن حازما بما فيه الكفاية.

أيدته آملا أن يوفق، وأعلنت بعد عدة أشهر من توليه المنصب مساندتى له وتحفظى فى الوقت نفسه فى مقال كان عنوانه «نعم لعصام شرف بشرط»، ولكننى بعد شهور أخرى طلبت منه أن يستقيل عندما كان هناك اتجاه قوى لتطبيق العزل السياسى على أعضاء لجنة سياسات الحزب الوطنى، وكان شرف عضوا فى هذه اللجنة.

وقد عطل تنفيذ العزل عندئذ السؤال الذى كان يدور فى الكواليس: «ونعمل إيه فى موضوع عصام شرف؟»، هكذا كان اقتراحى أن يرفض هو الاستثناء ويستقيل، ولكنه لم يفعل، وفى النهاية اضطر إلى تقديم استقالته فى 21 نوفمبر 2011.

فى عزاء خالد عبدالناصر

عندما ذهبت إلى عزاء الصديق خالد عبدالناصر، وعلى الرغم من حدة أسلوبى فى انتقاد المجلس العسكرى والحكومة، فإن اللواء إسماعيل عتمان مدير إدارة الشئون المعنوية وعضو المجلس العسكرى جاءنى ليقول: «يا أستاذ حمدى، سيادة المشير عاوزك تطلع تقدم برنامج فى التليفزيون، أنت تعلم كم يقدرك»، قلت إننى آسف لعدم تلبية دعوته للمرة الثانية، ولكننى لا أملك من أمرى شيئا لأننى تعاقدت بالأمس فقط مع قناة «التحرير»، وليس هناك من حل كما أعتقد إلَّا أن يتفق التليفزيون مع القناة على بث البرنامج فى وقت واحد، فوعدنى بأن يرى كيف يتم ذلك ويرد عليَّ فى الصباح.

وعند خروجى من العزاء التقيت باللواء سمير فرج مدير الشئون المعنوية الأسبق ومحافظ الأقصر عند قيام الثورة، وكنت قد قابلته فى عشاء دعا إليه الدكتور الأسوانى قبل اندلاع الثورة بأسابيع، وقلت له يومها: «نحن نثق بك، ونرجو منكم أنتم كبار الضباط أن تتخذوا الموقف الذى ترتضيه ضمائركم فى اللحظة المناسبة»، ولم أضف إلى ذلك كلمة، واكتفى هو بالقول: «إن شاء الله، سنكون أهلا لثقة الشعب.«

اجتماع مع الرئيس منصور

عندما دعا الرئيس عدلى منصور فى يوليو 2013 القوى الوطنية إلى مؤتمر حول «المصالحة الوطنية والعدالة الانتقالية»، طلبت الكلمة فى بداية الجلسة وقلت إن لديَّ نقطة نظام، كيف يدعو جناح من الدولة (كنت أقصد الفريق أول السيسى) الشعب المصرى للنزول يوم الجمعة القادم لتفويض القوات المسلحة لمواجهة العنف والإرهاب، فى حين يدعو جناح آخر اليوم للمصالحة؟ وقلت إن الحديث عن المصالحة لا يجدى فى الظروف القائمة، واقترحت فض الاجتماع رسميا، وإن كان من الممكن استمراره لمناقشة الوضع العام.

علق المستشار عدلى منصور قائلا إنه يتفق مع وجهة نظرى تماما، ولكنه يفضل أن يترك القرار للمجتمعين، فضل الحضور أن يواصلوا الكلام، كانت هذه هى المرة الأولى التى أقابل فيها رئيسنا المؤقت، فاجأنى بانطلاقه فى الحديث وسرعة بديهته، وكذلك بحزمه وسماحته فى آن، تمنيت يومها أن تطول رئاسته سنة أخرى أو اثنتيْن.

عندما قامت الشرطة بفض اعتصام رابعة، يومها اتصلت بوزيرة الإعلام أقترح عليها أن أقدم «تعليقا فى برنامج قصير شبه يومى بلا مقابل فى ضوء الظروف الحاسمة.«

كان هذا نص رسالة SMS أرسلتها إليها عندما تعذر الاتصال بها، وانتظرت عدة أيام بلا جدوى، فطلبت من المخرج عبدالرحمن حجازى، الذى كان مخرجا تنفيذيا لبرنامجى «رئيس التحرير»، أن يذهب إلى مدير مكتب الوزيرة لإبلاغه أننى حاولت الاتصال بها فوجدت هاتفها مغلقا، فأرسلت لها رسالة، أرجو أن تكون قد وصلتها، علل الرجل تعذر الاتصال بأن شاشة تليفون الوزيرة «بايظة»، وقال إنها لا بد ستتصل بى فى اليوم ذاته.

لم أسمع من الوزيرة فى الأيام الخمسة التالية، وعندها تصادف أن اتصل بى الأستاذ جابر القرموطى فى برنامجه «مانشيت» لأعلق على بعض الأحداث السياسية، فرويت له ما جرى مع الوزيرة دون أن أعلق بكلمة، فما كان من القرموطى إلَّا أن عَنَّفَ الوزيرة تعنيفا قاسيا، زاد من حدته سخريته من التليفون وشاشته «البايظة.«

فى حديث للأستاذ محمد عبدالقدوس معها نشره فى «أخبار اليوم»، قالت الوزيرة إن سبب زعلها منى هو أننى قلت كلاما لا يجوز فى حقها وأساء إلى شخصها فى إحدى الفضائيات الخاصة.. لكن مجلة «آخر ساعة» نشرت مقالا للأستاذ عبدالرازق حسين كان عنوانه: «هل أصبح حمدى قنديل محظورا فى ماسبيرو؟.«

سواء كان حل اللغز هو أن الوزيرة اتخذت قرارا متعلقا بالعمل بسبب زعلها من أمر شخصى، أو أنه كان بسبب خشيتها مما يمكن أن أقول فى البرنامج المقترح، أو بسبب تدخل من مدير مكتبها الذى كان مديرا لمكتب الوزير الأسبق أنس الفقى أو لأى سبب خافٍ آخر، فالمثير للأسف فى النهاية أن صوتى لم يحجب فقط فى ظل نظام مبارك، ولكن أيضا فى عهد ما بعد 30 يونيو.. ذلك هو الفصل الأخير الساخر.. النهاية المثلى لدراما الفصول السابقة من هذا الكتاب!.. لكن.. كيف يكون الفصل الأخير، والستار لم يسدل بعد؟!